الدكتور أمين توفيق الطيبي

دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية



منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية



دراسات في

تاريخ مدينة سبتة الإسلامية

الدكتور أمين توفيق الطيبي

دراسات في تاريخ مدينة سبتة الإسلامية



منشورات
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إلى روح عالم عربي فذّ
من أبناء سبتة
الشريف الادريسي



المحتويات


تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنا أن نقدم للباحثين العرب هذه الدراسات الاربع عن تاريخ مدينة سبتة الاسلامية، وهي المدينة العريفة ذات التاريخ الحافل منذ أن افتتح المسلمون الاندلس عام ٩٢ هـ / ٧١١ م. فمن سبتة كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العُدوة المغربية الى الأندلس. وتحتل سبتة موقعا استراتيجيا حيويا يتحكم ببحر الزُقاق (مضيق جبل طارق) وظلت المدينة ـــ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة والمستمرة بالأندلس ـــ مدينة عربية ذات طابع أندلسي. وقد اشتهرت سبتة عبر تاريخها دارا للعلم والعلماء، ومركزا مهما للتجارة برا وبحرا، وبخاصة بين الاندلس والمغرب، واشتهر أهلها بركوب البحر وإنشاء الأساطيل، كما اشتهر رماة سبتة وساهموا مساهمة فعالة في الجهاد دفاعا عن المدينة ذاتها، وذيادا عن الاسلام في الأندلس في وجه الزحف الصليبي من الشمال.

تشتمل هذه الدراسات الأربع على دراستين لنا، أولهما تتناول النشاط الاقتصادي والعلمي بمدينة سبتة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وتتناول الدراسة الثانية الدوافع لاحتلال البرتغاليين ــ غدرا ــ مدينة سبتة الآمنة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م.

كما تشتمل على دراستين لاستاذنا وصديقنا الدكتور ج. د. ليثام J.D. Latham استاذ اللغة العربية والدراسات الاسلامية ورئيس دائرة الدراسات الاسلامية بجامعة ادنبره باسكتلنده. والأستاذ ليثام من بين الباحثين المرموقين في ميدان الدراسات الأندلسية والمغربية، وله اهتمام خاص في كتاباته بأثر الموريسكيين الحضاري في بلدان الشمال الافريقي. وقد صدر له عام ١٩٨٦ كتاب ضمَّ أبحاثه في هذا المجال ــ من بينها هاتان الدراستان ــ بعنوان : (من الأندلس الى المغرب : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي وثقافته).

تدور الدراسة الأولى للاستاذ ليثام حول موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل الدفاع عنها. وتتناول الدراسة الثانية تاريخ أسرة بين العزفي التي استقل أبناؤها في حكم مدينة سبتة زهاء سبعين عاما (١٢٥٠ ــ ١٣٢٨ م)، وكان لهم دور كبير في النهوض بالمدينة علميا واقتصاديا، كما ساهموا ــ عن طريق اسطول سبتة ورماتها ــ في الجهاد في الأندلس وفي بحر الزقاق، متعاونين في ذلك مع سلاطين المغرب من بني مرين. ويشتهر أبو العباس أحمد العزفي ــ والد مؤسس الأسرة الحاكمة أبي القاسم محمد ــ بانه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، اذ لاحظ احتفال المسلمين في الأندلس وسبتة بأعياد النصاري، وصنَّف في ذلك كتاب (الدر المنظم في مولد النبي المعظم)، الذي أكمله من بعده ابنه أبو القاسم محمد العزفي.

وقد وافق الأستاذ ليثام ـــ مشكورا ـــ على قيامانا بترجمة ونشر هاتين الدراستين. وتوخينا من جانبنا الدقة والأمانة في نقل الدراستين من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية، واعتمدنا عددا من المصادر العربية التي نشرت محققة في السنوات الأخيرة، وأجرينا عددا قليلا من التعديلات والاضافات مشيرين الى كل ذلك في موضعه بان جعلنا هذه الاضافات بين قوسين مربعين.

وختاما، نود أن نعبر عن بالغ تقديرنا وامتناننا لجمعية الدعوة الاسلامية العالمية لتوليها نشر هذا الكتاب ضمن منشوراتها بهدف احياء تراثنا الاسلامي المجيد والتعريف به، والله ولي التوفيق.

أمين توفيق الطيبي

موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الإسلامية

" ج . د . ليثام "



ان احتلال النصارى لمدينة سبتة بعد غزو البرتغاليين لها عام ١٤١٥ م مثَّل — كما هو معروف — بداية عهد جديد فقدت فيه المدينة وجهها كمدينة إسلامية. ففي غضون فترة قصيرة من الزمن نسبيا، تبدل مظهر المدينة، ولم يبق اليوم من الفن والمعمار الاسلاميين ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر. فالمدينة اذن ليست كفاس أو مراكش أو الرباط أو مكناسة، اذ أن تراثها المشاهد هو تراث اسباني — برتغالي، ومما يؤسف له قلة ما تبقى من الآثار الملموسة لماضي المدينة المغربي[١]. وبالتالي، فاننا نجد فراغا منظورا — على سبيل المجاز — ينزع في بعض الأحيان إلى القاء غموض على عظمة أهمية سبتة في الفترة الاسلامية. ولسنا نرمي في المقام الأول الى التدليل على حقيقة تلك الأهمية ومداها، وانما نتوخى تحديد الأسباب الرئيسية للظاهرة، وبالخصوص دراسة بعض الطرق التي تمكنت فيها مدينة سبتة — وقد وطدت مركزها — من الدفاع عنه والمحافظة عليه في أواخر القرون الوسطى.

(١) لم يَبْق من السور الاسلامي سوى برج من الحجر. انظر **And.** 17 (1952), pp. 244-6.

منذ بداية الحكم العربي في الأندلس والمغرب، قُدر لمدينة سبتة ـــ بفضل موقعها وجغرافيتها الطبيعية ـــ أن تلعب دورا رئيسيا في شؤون المغرب الاسلامي. انشئت سبتة فوق برزخ يصل اليابسة في الغرب بشبه جزيرة جبل الميناء في الشرق، وحظيت نواتها الأولى ببعض المزايا الطبيعية استغلتها المدينة في القرون التالية استغلالا كاملا لتلبية حاجاتها الداخلية، ولتلبية تحدي الفرص، ولمقاومة الأخطار الخارجية. ولما كان البحر يحدها من الشرق، ويكتنفها خليجان احدهما في الشمال والثاني في الجنوب، فان المكان لا يتسنى الوصول اليه برا إلّا من الغرب، وحتى ذلك لا يتسنى إلّا عن طريق ربوة يشقها واد عميق ينحدر انحدارا كبيرا فوق صخور تنحدر الى البحر في الشمال، ويخرج من القمم الخارجية لربوة Anjona في الجنوب. وكان من جراء الداخل المقفر والبرزخ الضيق في الغرب معا ان اتخذت شبه الجزيرة صفة جزيرة، وتبعا لذلك، فان سكانها منذ أقدم الأزمنة زاولوا صيد الاسماك وركوب البحر(٢). وكان بوسعهم من التقاط المناسبة رؤية الساحل الاسباني بصورة واضحة واسعة، كما أن الجواز الى الجزيرة الخضراء في أحسن الأحوال الجوية يمكن القيام به في مدة تقل عن ثلاث ساعات(٣). فليس من الغريب اذن أن يكون مستقبلهم الاقتصادي قد قام على تنمية التجارة البحرية. ولم يقتصر أفقهم التجاري على سواحل المغرب الأقصى والأندلس، بل تعداها ـــ مع الزمن ـــ الى حدود مدى المدينة الطبيعي.

ان اتصالات سبتة الاسلامية مع أوروبا المطلة على البحر المتوسط فيما وراء شبه جزيرة ايبرية تعود الى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. ومنذ حوالي منتصف القرن الثاني عشر الى العقود الأولى من القرن الرابع عشر، تتوفر لدينا أكثر الصور وضوحا عن تجارة مزدهرة عبر البحر المتوسط تصل سبتة ـــ في آن واحد، أو على التوالي، أو من آن لآخر ـــ بمدن مرسيليا ومونبلييه وبيزة وجنوة والبندقية، ولعلها كانت تصلها بجزيرة صقلية كذلك(٤). وفي حدود منتصف القرن الثاني عشر للميلاد، كان للجنويين الصدارة في هذا الميدان، وعلى مدى القرن الثالث عشر فإن الجنويين ـــ ومعهم القطلانيون ـــ هم الذين يستحوذون على اهتمامنا(٥). ولم

(٢) Cf. Dufourcq, **Hesp.**, p. 69.

(٣) .Cf. Lévi- Provençal, **Hist. Esp. Mus.**, iii, p. 324

(٤) .Dufourcq, **Hesp.**, pp. 70f. Cf. Lévi-Provençal, **Ciudades**, p. 41.

(٥) .Dufourcq, **Hesp.**, pp. 71f. Cf. idem, **Esp. catalune**, P. 161 ff.

يكن هؤلاء هم العناصر الوحيدة التي اجتذبتها سبتة المتعددة الأجناس. فبعد انتصارات المسيحيين التي انتزعوا فيها الجزائر الشرقية (جزر البليار) وبلنية من أيدي المسلمين (١٢٣٨ م)، نجد أن سوق سبتة كان يتردد عليه التجار من جزيرة ميورقة أولا ثم تجار بلنسية فيما بعد(٦). ولا يسمح لنا المقام هنا ببحث طبيعة الواردات والصادرات، وفنادق النصارى وقناصلهم، والرسوم التي كان يجتبيها حكام المغرب(٧). وحسبنا القول بأن الانطباع العام عن سبتة من أيام الموحدين فصاعدا هو أن المدينة كانت تنعم بالرخاء التجاري. ان سبتة التي كانت تتميز جغرافيا عن بقية موانىء المغرب على ساحل المحيط الأطلنطي كانت — في الأحوال الطبيعية — مركزا تلتقي فيه السفن القادمة من شبه جزيرة ايبرية، وقوافل الدواب والابل من أجزاء كثيرة من المغرب، مما كان يعود بالأرباح على الجميع(٨). وباختصار، فان سبتة كانت مركزا لتوزيع السلع لغربي البحر المتوسط، وهو مركز يحظى بموقع مناسب عند مدخل الحوض بكامله وعند مخرجه. وهكذا، فحتى وصول البرتغاليين، ازدهر اقتصاد سبتة — تعززه باضطراد مكاسب الغزو البحري(٩) — ازدهارا عظيما مما مكن سكانها من الخروج من فترات القلاقل الداخلية الخطيرة وقد كيّفوا أوضاعهم بشكل لافت للنظر(١٠).

ليس من الصعب كثيرا تحديد العناصر الأساسية لقوة سبتة. فمن منتصف القرن الثالث عشر الميلادي الى منتصف القرن الرابع عشر لعل أبرزها كان اقتصادا مزدهرا وحضورا فعالا في البحر، ويمكن القول إن كلا منهما كان مؤشرا وضمانا للآخر، اذ إن السفن كانت تعني الرخاء، وكان الرخاء يعني السفن، وكان بعضها

(٦) .Dufourcq, **Hesp.**, pp. 70f. Cf. idem **Esp. catalune, p. 357.**

(٧) Lévi-Provençal, **Ciudades**, pp. 41 ff. Dufourcq, **Hesp.**, pp. 72f.

(٧) Lévi-Provençal, **Ciudades**, pp. 41 ff. Dufourcq, **Hesp.**, pp. 72f.

(٨) (عن التجارة مع اشبيلية) Dufourcq, **Hesp.**. p. 72. (عن تجارة الذهب مع السودان) Dufourcq, **Esp. cat. p. 36**، وص ١٥٨ عن التجارة عبر البحر المتوسط. (عن نقل القمح على ظهور الابل)، الأنصاري، ص ١٦٠.

(١٠) ان أهل سبتة الكثيري الشغب لم يقتصروا على مقاومة السلطة المركزية بل كثيرا ما كانوا يتحزبون فيما بينهم (انظر على الخصوص .Ibn Khaldun, **Berbères**, iv, pp. 159 ff, 200 ff) وفي فترات القلاقل كانت الحكومة تؤول الى مشيخة أو مجلس من الشيوخ (Ibid, pp. 64, 199 etc...).

يُكرى عند الحاجة من القوى البحرية في البحر المتوسط(١١). وثمة عامل آخر كان في صالح المدينة، ألا وهو بعدها عن العواصم السياسية للمغرب الأقصى وصراعات الأسر الحاكمة التي كانت تدور حولها. ومن النتائج الواضحة لذلك أن الحياة الاقتصادية كانت أقل عرضة للتعطل مما كان يمكن أن يكون عليه الحال(١٢). إلّا أن ذلك لم يكن كل ما في الأمر. فان طبيعة بعد سبتة كان يعني أن الخضوع لمراكز القوة السياسية كان في الغالب خضوعا ظاهرا أكثر منه خضوعا حقيقيا. وعلى ذلك، فان أهل سبتة تمكنوا من التمتع بقسط مُجْزٍ من الاستقلال الفعلي، ومن التخلص — في بعض المناسبات — من سيطرة الأسر الحاكمة كلية. ولعل من خير الأمثلة على ذلك تحول الأحداث في أعقاب الصراع بين الموحدين والحفصيين في المغرب الاسلامي. وتبدأ القصة في شهر ديسمبر من عام ١٢٥٠ م. ولما يوطّد بنو مرين سلطانهم بعد. فإدراكا من بعض أعيان سبتة لضعف السلطة المركزية وقوة مركزهم، فإنهم رأوا أن الفرصة مواتية لاقامة نوع من الاستقلال الذاتي في المدينة(١٣). وكما حدث مرارا في التاريخ الاسلامي، فإن المحاولة — وقد نجحت في تحقيق غرضها — ادت الى ظهور أسرة واحدة كمؤسسة حاكمة فعالة بزعامة أقوى أفرادها، وهو أبو القاسم العزفي، فكان أول رجل في أسرة محلية من الأمراء الولاة(١٤). ان بني العزفي — ولمدة تزيد على سبعين عاما، وبموافقة سلاطين المغرب أو بدونها — تمتعوا بقدر من التحكم — الكبير في بعض

(١١) إلّا أن سبتة بهذا الخصوص كانت نسبيا مكتفية ذاتيا. ومن ناحية أخرى فان المرينيين اضطروا — لفرض سيطرتهم على المدينة — الى التحول إلى أوروبا (كما حدث عام ١٩٧٤ مثلا. للتفاصيل انظر **Dufourcq, Esp. Catalane**, pp.166ff (في حدود ١٣٣٩) Cf. Robson, **EHR**, (المجلة التاريخية الانجليزية) p. 398 وعن المساعدة الجنوية لسبتة في القرن الثالث عشر، انظر Dufourcq, op. cit. p.162, n1 يبدو أنه في المجال التجاري لم يتردد السبتيون عن المشاركة الجزئية في ملكية السفن المسيحية. فمن نص مؤرخ في عام ١٣٠٢ نعلم أن صاحب سبتة أبا طالب العزفي كان شريكا في ملكية سفينة قطلانية (Ibid, pp. 57, n.8, 357).

(١٢) ان الصراعات على السلطة كثيرا ما كانت تؤدي الى خراب الريف مما كان يؤدي الى نقص في المواد الغذائية وارتفاع في الأسعار. (انظر الحسن الوزان : وصف افريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٨٠، ص ١٧١).

(١٣) كان المحركان الرئيسيان حجبون الرنداحي قائد البحر والفقيه أبا القاسم العزفي. وكان هدفهما — كما دللت على ذلك الاحداث — التخلص من التبعية لوالٍ حفصي والحصول على استقلال فعلي مع تبعية اسمية لسلطان ضعيف من الموحدين. (Ibn Khaldun, **Berbères**, ii, pp.247f, 333f., iv, p.64).

(١٤) ولد ما بين عامي ١٢٠٩ و١٢١٣، وتوفي في شهر أبريل ١٢٧٩.

الأحيان والأقل من ذلك في البعض الآخر ــ بمقدرات مدينتهم(١٥). وقد حقق بنو العزفي للمدينة في أوج حكمهم مكانة من القوة السياسية والاقتصادية الحقيقية حتى أن جيمس الأول صاحب أرجون ــ في وقت من التفاؤل الأرجوني القطلاني ــ رأى من الحكمة أن يبرم معاهدة سلم مع صاحب «Senyor» سبتة (فبراير ١٢٦٩)(١٦). ان عمله هذا ينبغي أن لا يمر دون ملاحظة، اذ أن ذلك ــ على حد معلوماتنا ــ كان أول اتفاق يعقد بين تاج أرجون وبين سلطة مغربية. اجل، ان المعاهدة خرقها تاج أرجون بعد خمس سنوات من إبرامها، إلّا أن المهم في أمر هذا الانتهاك للمعاهدة هو أن أرجون قامت بذلك بعد حصولها على تأكيد بمساندة المرينيين(١٧). ان الرهان أخفق من وجهة نظر أرجون، ولسنين بعد ذلك انتهجت أرجون سياسة الحذر تجاه سبتة. وهذا من شأنه أن يفسر قيام أرجون في عام ١٢٩٤ باعتماد سفراء لها لدى أبي حاتم العزفي(١٨)، وقيامها في عام ١٣١٩ بتزويد مبعوثيها القاصدين تلمسان بأوراق اعتماد يمكن تقديمها الى صاحب «Senyor» سبتة في حالة وقوعهم في أيدي غزاة البحر السبتيين(١٩).

وكما أن الموقع الجغرافي كان له دور كبير في الوضع التاريخي المذكور في تكوين نمو سبتة الاقتصادي ومستقبلها السياسي، فإن ذلك الوضع ذاته كان له كذلك أثره في تقرير مصيرها الاستراتيجي. ولا شك في أن العاملين الحاسمين الرئيسيين كانا أولا قرب شبه الجزيرة من ساحل الأندلس، وثانيا مظاهرها الطبيعية التي حبتها مزايا جزيرة دون مساوئها. ان الطبيعة الأساسية لمهمتها الاستراتيجية جلية تماما في القرن العاشر الميلادي. فلما ظهر الفاطميون أصحاب افريقية، استهدف خليفة قرطبة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) إقامة حاجز في شمال افريقيا في وجه غزو ممكن للأندلس(٢٠). ولما كان للناصر أسطول قوي،

(١٥) في عام ١٣٠٦ أدت خيانة من الداخل الى استيلاء النصريين اصحاب غرناطة على مدينة سبتة، وتم إبعاد اسرة العزفي الى غرناطة. إلّا أن المرينيين أعادوهم الى مسقط رأسهم في عام ٧١٠ / ١٣١٠ ــ ١٣١١ .(Ibn Khaldun, **Berbères**, iv, pp.159ff. 198).

(١٦) , Dufourcq, **Esp. catalane**, p. 163.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٦٤ وما بعدها.

(١٨) المرجع السابق، ص ٢٣٤، الحاشية ٦.

(١٩) المرجع السابق، ص ٩١. انظر كذلك ص ٤٦٦ والحاشية ٤ (حول بعثات ميورقة الى سبتة).

(٢٠) حول سياسة عبد الرحمان الثالث تجاه شمال افريقيا انظر : E. Lévi-Provençal, **And.**, 11 (1946), pp. 351-78. Idem, **Hist. Esp. Mus.**, ii, pp 86 ff. انظر على الخصوص ص ٩٤ وما بعدها.

وكان يدرك الحاجة لحماية سواحل الأندلس، فإنه شرع في انتهاج سياسة للتوسع الدفاعي تقوم على الاستحواذ على قواعد presidios تتمركز فيها الحاميات على ساحل المغرب الأقصى المطل على البحر المتوسط. وقد تكون مليلة الحلقة الأولى في هذه السلسلة (٢١٤ /٩٢٧)، إلّا أنها بالتأكيد لم تكن أقوى الحلقات. وكما تبين أحداث التاريخ، فإن سبتة القوية والمعادية كانت تشكل التهديد الأكبر لسلامة اسبانيا، ولا شك في أن الخليفة الأموي كان يدرك ذلك، إذ أنه عند سنوح أول فرصة مناسبة تم احتلال المدينة وضمها الى اراضيه (٣١٩ /٩٣١)[٢١]. ان السيطرة على سبتة كانت تعني قفل الباب المؤدي الى اسبانيا، وهذا هو المفتاح لفهم صحيح لدور سبتة الاستراتيجي الدائم. أما القول بأن سبتة هي «الباب المؤدي الى افريقيا»[٢٢]، أو أنها مفتاح المغرب الأقصى «la clé du Maroc»[٢٣] ـــ سواء أكان وصفها بهذه العبارات أو ما يشابهها ـــ فان من شأنه أن يكون وصفا مضللا. ان المقارنات التي تنطوي عليها هذه العبارات مقارنات عفوية وسطحية. ولعل الأدق تشبيه سبتة بصمام يسمح بحرية الحركة وقوتها في اتجاه واحد فقط، وبعبارة أخرى، فان سبتة طالما بقيت في أيد مغربية، فإنها كانت مصدرا لضربات نحو الخارج يكمن فيها تهديد خطير لاسبانيا وما حققته من حرب «الاسترداد». ومن ناحية أخرى، فان احتلال النصارى للمدينة فيما بعد لم يفتح بابا الى قلب المغرب، بل على العكس من ذلك، فإن الجغرافيا البشرية والطبيعية للداخل شكلت حاجزا فعالا في وجه ضغط القوات المتقدمة منها[٢٤]. ومهما يكن من أمر، فان شيئا واحدا هو في حكم المؤكد : ان التردي المستمر في قوة المسلمين في الأندلس جعل لمدينة سبتة دورا عظيم الشأن في الصراع للاحتفاظ باستقلال المسلمين في الأندلس. إن تنشيط وتدعيم المقاومة

(٢١) المرجع السابق، ص ٩٦ وما بعدها.

(٢٢) **EI,** s.v. Ceuta.

(٢٣) Dufourcq, **Hesp.** p. 85.

(٢٤) انظر أعلاه، ص I/سطر ١٢ ـــ ٢٤. يقول هـ. تيراس : «ان هذه المدينة المغربية كانت تعيش دائما تقريبا في عزلة عن سائر أنحاء المغرب وتربط مصيرها بمصير اسبانيا» (**And.**, 27 (1962), p. 442). قارن ذلك بما يقوله دوفرك : «لعلّ النموّ الكبير في مزاولة سبتة للقرصنة يمكن تفسيره جزئيا بأنه كان بسبب فقر الأراضي المجاورة لها التي ما زالت مقفرة. فالماء فيها غير كاف، والأهالي يعيشون من البحر (الصيد حاليا) لا من البر». (Dufourcq, **Esp. catalane,** p. 158 n. 5).

للتقدم المسيحي داخل شبه جزيرة ايبرية كانا حاجة ملحة، وأصبحت أكثر إلحاحا حينما تقلصت الأراضي الخاضعة لسيادة المسلمين الى حدود مملكة غرناطة الضيقة والمعرضة للتهديد باستمرار. وفي نهاية المطاف، لم يكن لتتسنى تلبية هذه الحاة تلبية فعالة إلّا بالتحكم بمضيق جبل طارق، ويبدو لي بأن ملائمة سبتة لمواجهة التحدي طوال المدة التي واجهته ترجع الى حد ليس بالقليل الى الأمن الذي توفر بفضل قوة وسائل دفاعها. وبدون هذه القوة، يصعب على المرء ان يرى كيف أمكن لسبتة تحقيق امكاناتها الاستراتيجية تحقيقا كاملا. لذلك، فإن من المناسب أن ندرس بشيء من التفصيل الأسس الرئيسية التي قامت عليها قوتها وإمكاناتها. وفي رأيي فإن أهمها ما يلي : تحصينات سليمة، تسهيلات ملائمة للملاحة، التمكن من الحصول على المؤن في زمن الحرب، وتوفر قوات حسنة التجهيز للحرب برا وبحرا. وسنتناول بالتعليق هذه النقاط على التوالي.

ان الحاجة الى تحصين سبتة لم تغب عن بال عبد الرحمن الثالث. فما إن تملك شبه الجزيرة حتى بادر الى تزويدها بسور منيع من الحجارة[٢٥]. كما ان المنصور محمد بن أبي عامر بدأ ببناء سور جبل الميناء Monte Hacho[٢٦]، وتواصل تعزيز وسائل الدفاع في عهدي المرابطين والموحدين[٢٧]. ويمكن إدراك مدى فعاليتها — بالنسبة للجانب الغربي من البرزخ على الأقل المحاذي لليابسة — مما نعرفه عن الأحداث التي تلت ثورة واليها موسى على أخيه المأمون الموحدي.(في حدود ١٢٣٢)[٢٨]. فلمدة ثلاثة أشهر، قاتل الجنود المحاصِرون بقصد دخول المدينة، وبالرغم من استعمال ثلاثة مجانيق ثقيلة قصفت التحصينات بالصخور يوميا، فإنه لم يتسن نقب الأسوار، بل إن المؤرخ يزعم بأنه لم يقع تدمير حتى بيت واحد بفعل المجانيق. وبعد ذلك بنيف وأربعين سنة، وبعد أن دللت القوات البرية المرينية

(٢٥) البكري، أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك)، تحقيق دي سلان، باريس ١٩٦٥، ص ١٠٣.

(٢٦) الادريسي، محمد : وصف افريقيا والاندلس (قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، تحقيق دوزي ودي خويه، ليدن ١٨٨٦، ص ١٦٧.

(٢٧) انظر أدناه ص I/سطر ١٥٤ — ١٥٧. ١٩٠ — ١٩٦، انظر كذلك A. Huici Miranda, **Historia politica del imperio almohade,** Teturn 1957, ii, p. 624.

(٢٨) ابن عذاري : البيان المغرب، الجزء الثالث، عني بنشره أ. هويثي ميراندا مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني، تطوان ١٩٦٣، ص ٢٨١.

على قدرتها على أخذ مدينة طنجة (١٢٧٣) ــ وهي دون سبتة مناعة ــ حاولت أن تجرب الأمر ذاته في وسائل دفاع سبتة من جانب البر دون جدوى، كما كان قد حدث عام ١٢٣٢(٢٩). فبدون قوات بحرية قوية ــ تاركين جانبا حدوث خيانة في الداخل ــ كان مقدرا لأي هجوم من ناحية البر الفشل والاخفاق. ولذلك، ولكي يحمل سكان المدينة العنيدين على الطاعة، وجد السلطان المرينيُ أبو يوسف نفسه مضطرا الى إبرام معاهدة للحصول على تدخل أرجوني ــ قطلاني، وقد تمثل ذلك في تقديم نحو خمسين سفينة (١٢٧٤)(٣٠).

ان فكرة عن نظام الدفاع الهائل بسبتة كما كان في أوائل القرن الخامس عشر للميلاد يمكن تكوينها من كتاب الأنصاري (اختصار الأخبار)، وهو كتاب عظيم القيمة عن سبتة(٣١). يذكر الأنصاري أنه كان بسبتة ١٨ محرسا(٣٢). وكان ثمة خارج شبه الجزيرة محارس لمراقبة الطرق المؤدية الى سبتة من طنجة غربا وبلاد الريف جنوبا. وكان الطالع الكبير الذي بأعلى جبل الميناء يكشف مضيق جبل طارق ويمكن الناظر ــ في أفضل الأحوال الجوية طبعا ــ من رؤية واضحة لسواحل كل من اسبانيا والمغرب الأقصى. وكان بإمكان الناظر أن يرى ساحل الريف حتى بادس، وأن يرى ساحل الأندلس حتى مالقة شرقا والى ما وراء طريف غربا. إن هذا الطالع ــ ويعرف محليا بالناظور ــ كان يشكل جزءا من حصن حقيقي بتحصيناته وأبوابه وبرجه (قَلَهُرَّة)(٣٣). وهذا الحصن الذي ابتناه المرابطون كان يقع داخل حدود المدينة، ولما كان من الممكن أن يعمل كوحدة مستقلة، فإنه كان

(٢٩) Ibn Khaldun, **Berbères**, iv, p. 66 Cf. Dufourcq, **Esp. Catalane**, p. 164 § n.3.

(٣٠) عن المصادر المسيحية والتفاصيل التي تزودنا بها انظر Dufourcq, op. cit., pp. 164 ff.

(٣١) كما يوحي عنوان الكتاب فانه اختصار لكتاب أكبر منه عن سبتة للمؤلف نفسه. ولما فرغ المؤلف من (اختصار الاخبار) في فبراير ١٤٢٢، فان وصفه جاء بعد احتلال سبتة من قبل البرتغاليين بنحو سبع سنوات. ومع ذلك، فان من الواضح أن سبتة التي يصفها هي المدينة التي عرفها ميناء عظيما وقاعدة «بحرية» لبني مرين. وعند الاقتباس من هذا المصدر فاني أعتمد بالكامل على ترجمتي للنص العربي، وهي تختلف من أوجه كثيرة عن ترجمة الاستاذ J. Vallvé.

(٣٢) الأنصاري، ص ١٥٦. وعن معاني كلمة «محرس» انظر Dozy, **Suppl.** تحت كلمة «محرس»، وكذلك جامع مفردات G.S. Colin في ترجمته لكتاب (المقصد الشريف) للبادسي **Vie des saints du Rif**, Paris 1926, p. 239.

(٣٣) عن معنى «قَلَهُرَّة» في هذه القرينة انظر H. Terrasse, **And.** 27 (1961), p 444.

يعتبر ملاذا وحمى ضد الأخطار التي قد تتعرض لها المدينة بسبب الحصار أو الاضطرابات الداخلية.

ان سلطة المرينيين على سبتة ـــ التي كانت تحظى لفترة طويلة باستقلال ذاتي فعلي ـــ توطدت آخر الامر في سنة ١٣٢٨م(٣٤). ان معلوماتنا عن وسائل دفاع المدينة كما كانت قبل ذلك التاريخ بعيدة عن أن تكون معلومات تامة. كما أننا نجهل مدى تعزيزها أو تحويرها من قبل سادتها الجدد. وعلى ذلك، فإنه ليس من السهل دائما أن نقرر أيا من مظاهر نظام الدفاع التي يمكن تكوينها من كتاب (اختصار الأخبار) كان قائما قبل الحكم المريني المباشر للمدينة. إن أحد المظاهر التي يبدو أنها كانت قائمة ـــ ولكننا لا نعرفُ عنها إلّا القليل ـــ سلسلة الحفائر التي يبدو أنها أقيمت بصورة رئيسية لدرء أي هجوم قد يقع من ناحية الغرب. فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو الربض البرَّاني(٣٥). وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب، بل أيضا حفيرا كبيرا يحيط بها، وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البراني عن بقية سبتة(٣٦). ومهما كانت حقيقة الأمر، فإن من المؤكد على الأقل بأن الربض البراني كان من الضخامة بحيث إنه كان همًّا أَقَضَّ مضجع السلطان المريني المنتصر أبي سعيد، فأصدر أمره بهدم السور(٣٧). وبعد ذلك لم تعد التحصينات في أقصى الجانب الغربي سوى تحصينات المعسكر الملكي آفراك أو المنصورة(٣٨)، وكانت تتحكم ـــ من موقعها المناسبَ ـــ بشبه الجزيرة في أسفلها. ويذكر الأنصاري حفيرين آخرين، أحدهما الحفير الهائل المعروف بالسهاج وعليه قنطرتان،

(٣٤) Ibn Khaldun, **Berbères**, iv, pp. 200 ff.

(٣٥) الأنصاري، ص ١٦٤، انظر الخريطة التقريبية.

(٣٦) المصدر السابق، ص ١٦٥. ان تفسيري للنص العربي ووجهة نظري بشأن موقع مضرب الشبكة (انظر ص I/سطر ٢١٠ ـــ ٢١٧ الحاشية ٥٢ أدناه) يجعلانني أعتقد بأن هذا الحفير الثاني يقابله ما يعرف اليوم باسم Gran Foso de la Muralla (انظر الحاشية ٣٩ أدناه).

(٣٧) المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣٨) Ibn Khaldun, **Berbères**, iv, p. 201., Lévi - Provençal, «Musnad, d'Ibn Marzuk. **Hespéris**, 5 1925), p. 63 n.4 ان موقع آفراك معروف الآن على وجه التحديد (١٩٨٠) **EI**, Suppl. I-2 s.v. «Afrag».

وهو يوصف بأنه «الفاصل بين الأرباض والمدينة»(٣٩)، وهذه ــ كما يخيل إليَّ ــ هي الأرباض في البرزخ التي كانت أصلا الى الغرب من المدينة الأصلية، وكانت بالفعل متصلة بها(٤٠). أما الحفير الرابع، فكان يفصل بين جنة الينشتي من الميناء وبين ما يلي ذلك من البلد «من العُرقوب الى باب الحلويين»(٤١). وبعبارة أخرى، فإنه كان حفيرا يفصل البرزخ عن الطرف الشرقي لشبه الجزيرة.

إن الأنصاري مخيِّب للآمال كمصدر للمعلومات عن الأسوار وأبوابها. فهو يشير اشارة عابرة الى «الأميال»(٤٢) الستة من الأسوار والبروج(٤٣) للميناء، إلا أنه يكاد يقتصر على تعداد الأبواب : لأفراك ثلاثة أبواب، وللربض البراني خمسة أبواب، ولبقية شبه الجزيرة خمسون بابا(٤٤). وكانت كل الأبواب تقريبا ملبسة بالحديد. ولما كان الباب الجديد هو باب سبتة الرئيسي فإنه كان يقع عند الطرف الغربي من البرزخ(٤٥) ومدخلها على عشر قباب وأربع عشرة قوسا، تكتنفه قَلَهُرَّة عظيمة البناء، يحف بها برجان أصغر منها. ان هذه التفاصيل ــ فضلا عن ذكر عشر قبات ــ توحي بوجود حصن هائل ذي مدخل متعرج كثير المنعطفات(٤٦).

ان حجم وكثافة تجارة سبتة البحرية في الفترة الاسلامية ــ ناهيك عن تاريخ أسطولها ــ يدلان على أنه كانت تتوفر تسهيلات كافية للملاحة. بَيْدَ أننا لسنا في وضع يمكننا من تكوين غير فكرة عامة جدا عن ماهية هذه التسهيلات. ومن

(٣٩) الأنصاري، ينظر في موضعه. يخطىء ليفي ــ بروفنسال تماما في افتراضه بان هذا الحفير كان الحفير الذي يفصل البرزخ عن الميناء (Ciudades, p. 40) ونظرا للتفاصيل (الحجم، القناطر) فان من المُغري حقا قبول وجهة نظر Vallvé (ص ٤٣٢، الحاشية ١٠١) باننا نتحدث عن الحفير الحالي المسمى Foso de San Felipe (Gran Foso de la Muralla). إلّا أن قراءة دقيقة للنص تجعلني أعتقد خلاف ذلك (انظر الحاشية ٣٦ أعلاه).

(٤٠) لمعرفة رأي Vallvé في موقع هذه الأرباض، انظر Ansari (V), p. 400.

(٤١) الأنصاري، ص ١٦٥.

(٤٢) عن «الميل»، انظر حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد ١٩٦٧، ص ٥٠١، ٥٠٤، ٥٥٩.

(٤٣) الأنصاري، ص ١٦٤.

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٦٤ وما بعدها.

(٤٥) انظر Ricard, **Portugais**, p. 17, § n°2.

(٤٦) Cf. Terrasse, **And**, 27 (1962), p. 444.

المعلوم أن المرابطين والموحدين حولوا التسهيلات القائمة لإنشاء السفن التجارية الى مؤسسات لبناء السفن الحربية(٤٧). وبهذا الشأن، يعود الفضل على وجه الخصوص الى السلطان الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الذي ظلت ترتبط باسمه احدى دور الصناعة الكبرى حتى نهاية الفترة الاسلامية(٤٨). ويبدو أن دار الصناعة هذه كانت تقع في الشمال الشرقي على الساحل، شمالي ما يعرف اليوم باسم رصيف الفاو Muelle Alfau(٤٩). وفي زمن الأنصاري، كان المرسى الرئيسي لسبتة هو المرسى المعروف باسم حفرة مختار، التي يقول عنها الأنصاري بأنها كانت تقع عند الجانب الشمالي في مكان مناسب بالنسبة للرياح الغربية والجنوبية الغربية والشمالية الغربية(٥٠). ويواصل الأنصاري كلامه فيقول :

«... ويُخاف فيها من الريح البراني، سيَّما عند دار الصناعة حيث مضربُ الشبكة، إلّا اذا وافق الراسي الحفرة المذكورة وهي أمام باب الحلفاويين. وعلم الاهتداء ان يسامت مجاز جزيرة الرملة وينفتح له دون ساتر يستره، فإذا كان كذلك، فقد وافقها، والقاع منها إذذاك على ثماني قامات، رمل كله، فذلك الموضع مرسى بكل هواء برانيا كان أو غيره، وهو من أشرف مراسي المدينة..».

ان هذه الفقرة مهمة، لأنها تشير على الأقل الى وجود دار صناعة في مضرب الشبكة، ولسوء الحظ، فإنه لا يعرف على وجه التحديد موقع مضرب الشبكة، شأنه في ذلك شأن موقع حفرة مختار. إلّا أنه يمكننا التأكد من أمر واحد، اذ هو يذكر بأن مضرب الشبكة كان يقع عند الجانب الشمالي من سبتة، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون خليج المضربة في الجنوب كما يرى R. Ricard(٥١). إن تحليل المعلومات المنتقاة من كتاب (اختصار الأخبار) يوحي بأن الموقع لم يكن يبعد عن

(٤٧) انظر مادة «دار الصناعة» في EI², ii, p. 130 وعن دور الصناعة في الأندلس انظر Torres Balbas, **And.** 11 (1946), pp. 175-209.

(٤٨) مؤلف مجهول الاسم : كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٩٧٩، ص ٧ — ١٥٨. وعن المعلومات البرتغالية من القرن السادس عشر عن تسهيلات الميناء في هذه المنطقة انظر R. Ricard, **Hesp.**, 7 (1927), p. 232.

(٤٩) انظر الخريطة التقريبية.

(٥٠) الأنصاري، ص ١٦٩ — ١٧٠. (القراءة الصحيحة «لبج»، لا «لبح»).

(٥١) Ricard, **Portugais**, p. 17 n. 1.

المكان الذي ترسو فيه حاليًا عبّارة الجزيرة الخضراء(٥٢). كما أنني أجعل موقع حفرة مختار في المنطقة ذاتها مع التقدير للأستاذ J. Vallvé الذي يجعلها في الشمال الشرقي(٥٣) وحسب تفسيري للمعلومات اذن، فانه يبدو بأن مرسى سبتة الرئيسي ودور صناعة مضرب الشبكة كانت تقع في مكان ما قرب النقطة التي يمتد منها الآن رصيف اسبانيا Muelle de España. اما لماذا وقع الاختيار على هذا المكان فيمكن تفسيره بوضوح. ففضلا عن كون المكان مرسى أمينا، كانت توجد قناة تسمح بمرور السفن الكبيرة دون أن تتعرض لمخاطر الصخور.

لا يذكر الأنصاري شيئا عن الخليج الجنوبي الأصغر والمأمون، وسكوته يدعو الى الدهشة، اذ في هذا المرسى أنشأ السلطان المريني أبو الحسن (حكم ٣١ — ١٣٥١م) برج الماء لتعزيز حماية الميناء. وكما يدل عليه اسمه، فإن البرج أنشىء «داخل البحر ووسط الأمواج». ان برج الماء الذي كان يصله جسر بالبر، «صان جميع المرسى، فلا يتهيأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلّا أن يكون صديقا، وإلّا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته»(٥٤). لقد كان لهذه

(٥٢) أي عند رصيف اسبانيا Muelle de Espana. ويجعل Vallvé موقع مضرب الشبكة حول الطرف الشرقي لأضيق جزء من البرزخ قرب النقطة التي يمتد منها رصيف صائدي الأسماك Muelle de Pescadores الى المرسى. انني لا أشاطره هذا الرأي لعدد من الاسباب من بينها : (١) : يقول الأنصاري : إن السلطان المريني أبا سعيد هدم سور الربض من حافة الغدار الى مضرب الشبكة (الانصاري، ص ١٦٤). وهذا هو بالتاكيد معنى العبارة العربية «الربض البراني حيث الحارة والكسابون الذي هدّ سوره السلطان أبو سعيد المريني من حافة الغدار الى مضرب الشبكة». ولما كنت أقبل — بصورة تقريبية — المواقع التي حددها Vallvé للربض البراني وحافة الغدار (انظر الخريطة التقريبية)، فانه يستبعد أن يكون سور الربض الباراني امتد من هذا الربض الى نقطة بالقرب من رصيف صائدي الاسماك Muelle de Pescadores. (٢) يفيدنا الأنصاري (ص ١٦٣) بوجود طاحونة الحلفاويين بغربي البلد، فمن المعقول الافتراض بان باب الحلفاويين كان يقع كذلك في الغرب. (٣) الموقع المقترح المضرب يقع على مسافة ما من الموقع المقترح لدار الصناعة، إلّا أن النص يدل على أنه كان قريبا منه. (٤) يرد في تاريخ D. Pedro de Menezes ذكر باب Madrabaxabe يؤدي الى الريف ويقع قرب ما يحدده Ricard — وهو مصيب في ذلك — بالباب الجديد (**Portugais**, p. 17 § n.2). ان الباب الجديد كان باب سبتة الرئيسي، وكان يؤدي الى البرزخ من جهة الغرب.

(٥٣) انظر الخريطة التقريبية، يوحي النص بان حفرة مختار كانت قريبة من مضرب الشبكة (الأنصاري، ص ١٦٩). فاذا كان مضرب الشبكة يقع في الشمال الغربي — كما افترض — فانه ينبغي أن تكون حفرة مختار في الشمال الغربي.

(٥٤) ابن مرزوق التلمساني، محمد : المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا — خيسوس بيغيرا، الجزائر ١٩٨١، ص ٣٩٩.

الحيطة ما يبررها اذ إن فترة حكم السلطان أبي الحسن شهدت نشاطا حربيا في البحر على نطاق واسع، واستدعت المواصلة النشطة للحرب بحرا من أجل السيطرة على مضيق جبل طارق وجود عدد كبير من السفن من الجانبين المتصارعين في سبتة وبالقرب منها(٥٥). ويبدو أنه بإمعان النظر، كان يمكن التمييز بين سفن المسلمين وبين سفن النصارى، فمع أن أحجام الأنواع المختلفة من السفن كانت متباينة، فإنه لم يكن ثمة تباين يذكر بين السفن من نمط واحد في البحر المتوسط(٥٦).

ان مسألة تزويد سبتة بالمؤن في أوقات الحرب والحصار يبدو أنها مسألة قلما كانت تقلق بال أهل سبتة. فإن لم يتعرضوا لعمليات كالعملية المشتركة الموجهة ضدهم عام ١٢٧٤م حينما وقعوا تحت ضغط شديد برا وبحرا(٥٧)، فإن التزود بالمؤن لم يكن أمرا يسبب لهم مشاكل كبرى. فالبحر وحده كان مصدرا كبيرا للغذاء، وطالما كان بامكانهم استغلال البحر واستعماله ــ وهم في مأمن من الأذى ــ لنقل ما يفتقرون اليه من الضروريات، فإن كونهم في حالة سلم أو حرب كان أمرا لا يعنيهم كثيرا. وهذا يفسر الى حد كبير إخفاق الحصار الذي تعرضت له المدينة عام ١٢٣٢م(٥٨). لقد كان ميناء سبتة غنيا بالأسماك المتعددة الأنواع، وكان سمك التن الذي اختصت به ذا أهمية. وسواء أقبلنا قول الإدريسي أم لم نقبله حينما يقول إنه «يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير»(٥٩)، فإننا نستطيع على الأقل أن نرى من كتاب (اختصار الأخبار) بأن المياه الساحلية، من مرسى موسى ــ الواقع الى الشمال الغربي قليلا من سبتة ــ الى قب مُنْت Cabo Negro في الجنوب، كانت على وجه الخصوص مصدرا غنيا للغذاء، اذ فضلا عن وجود تسعة مضارب لصيد التن، كان يوجد في المنطقة من المصايد نحو ثلاثمائة(٦٠).

(٥٥) كانت توجد مراس كثيرة بجوار سبتة يمكن للسفن أن تكمن فيها (الأنصاري، ص ١٦٩ وما بعدها).

(٥٦) Robson, **EHR**, p. 392. يروي روبسون كيف أن ملك قشتالة لجأ في عام ١٣٤٣ م الى خدعة بأن أمر الاسطول القطلاني بالاقتراب من سبتة رافعا راية مملكة غرناطة. وهكذا فان الراية وحدها هي التي كانت تميز بين سفن الجانبين.

(٥٧) انظر أعلاه ص I/سطر ١٢٠ ــ ١٤٥.

(٥٨) انظر أعلاه ص I/سطر ١٢٠ ــ ١٤٥.

(٥٩) الادريسي : صفة جزيرة الأندلس، ص ١٦٨.

(٦٠) الأنصاري، ص ١٧٠.

أما بشأن الحبوب، فلعل أهل سبتة واجهوا مشاكل، اذ إن الحبوب لم تكن من الغلات المحلية. إلّا أن مما أعانهم في هذا المجال أنهم كانوا يدركون الوضع ومركزهم التجاري. إن أهل سبتة ــ بفضل مزاولتهم التجارة في البحر المتوسط وبوصفهم أكبر المصدرين للقمح من المغرب الأقصى ــ كانت تتوفر لديهم التسهيلات الكافية لاختزان الحبوب. ففي الفندق الكبير من بناء أبي القاسم العزفي ــ أي فيما بين عام ١٢٥٠ و١٢٧٩ ــ كان يمكن خزن الآلاف العديدة من قفزان القمح في اثنين وخمسين مخزنا(٦١). يقول الأنصاري(٦٢) : «وعدد المطامير المعدة لخزن الزرع أربعون ألفا مفترقة بالديار وبعض الحوانيت، ما عدى مخازن الفندق الكبير... والأهراء التي بالقصبة. يمكث الزرع في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير، لطيب البقعة واعتدال الهواء، ولكونها جبلية... وأحسنها ما كان في أعالي البلد كطالعة الميناء، وفي أسناد الربي السبعة جهة الجنوب».

ولا حاجة الى القول بأن امكانات أي موقع استراتيجي تتضاءل اذا لم يتسنّ ضمان توفير كميات كافية من ماء الشرب بصورة دائمة. إن قدرة سبتة على البقاء هذه المدة الطويلة تكفي للدلالة على أن أكثر احتياجاتها إلحاحا من الماء كانت متوفرة. إلّا أنه على ضوء نقص الماء صيفا في الأزمنة الحديثة، لا بد للمرء أن يتساءل عن مدى قدرة سبتة على سد حاجتها من الماء العذب. إن هذه القضية أكثر صعوبة، لأننا نجد في المصادر العربية السابقة ما يشير الى أن سبتة كانت تتزود بصورة رئيسية من جارتها الساحلية الوفيرة المياه بَليونَشْ Bullones الواقعة على مسافة نحو ثمانية كيلومترات الى الغرب منها(٦٣). ولسوء الحظ، فإن ثمة تعارضا في المعلومات، مما يجعل من الصعب على المرء أن يعرف على وجه التحديد الكيفية التي كان يصل بها الماء الى سبتة(٦٤). ولكننا لا نشك في أمر واحد : ان سبتة

(٦١) المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٦٢) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٦٣) عن بليونش، انظر L. Torres Balbas, «Las ruinas de Belyunes o Bullones» in **Tamuda**, 5 (1957), pp. 275-96.

(٦٤) بحث هذه القضية M. Gaudefroy - Demombynes في ترجمته لقطعة استخرجها من كتاب (مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري بعنوان : **L'Afrique, moins Egypte**, Paris 1927, p. 196 n. 1.

التي يصفها الأنصاري كانت تتوفر فيها كافة الوسائل المعروفة للتزود بالماء وحفظه وتوزيعه، وان تلك الوسائل كانت قد درست وتمت الاستفادة منها. لقد توفرت لعامة الناس خمس وعشرون سقاية، وكانت أبدعها صنعة ووضعا السقاية المقامة في مكان مناسب قرب المسجد الجامع، وهي ذات أنابيب نحاسية وألواح رخامية، وزخرفة وتنميق(٦٥). وفي الغرب كان بالربض البراني نحو ثمانين بئرا كان أحدها يزود نافورة مجاورة عليها قبة على أربعة أعمدة(٦٦). ولعل الصهاريج لحفظ ماء المطر كانت مستعملة منذ تاريخ مبكر(٦٧). وبناء على ما ذكره الأنصاري عن «صهريج الميناء»، وعلى ما ورد في إشارة برتغالية عن وجود صهاريج قرب الباب المؤدي الى ربض الميناء(٦٨)، يمكننا القول بان الصهاريج شرقي البرزخ ظلت مصدرا مهما لتزويد الماء. وينبغي فقط أن نضيف بأنه بحلول القرن الخامس عشر للميلاد كان يتم توزيع الماء توزيعا جيدا في كافة أنحاء المدينة، بفضل التطبيق الماهر للتقنية الهندسية(٦٩).

ونأتي الآن الى البند الأخير من البنود التي أردنا التعليق عليها — وهو ليس أقلها أهمية — ألا وهو مسألة القوات المسلحة بسبتة. إن من الواضح أن الموضوع متعدد الجوانب، ولا يتسع المقام حتى لدراسة عابرة لكافة جوانبه المختلفة. وحسبنا النظر في واحد من هذه الجوانب، وهو رماة سبتة الذين يبدو أن دورهم كان في غاية الأهمية للدفاع عن المدينة، وللتحكم كذلك في بحر الزقاق. ويتضح من مصادرنا العربية أن رماة سبتة منذ أيام الموحدين قاموا بدور مهم — كان يزداد أهمية باضطراد — في التاريخ الحربي للمغرب الاسلامي. ومع أن ميدان نشاطهم كان دون شك يتركز في سبتة وما جاورها، إلّا أنه امتد كذلك الى اسبانيا وأجزاء أخرى من المغرب(٧٠). وفي الأماكن البعيدة عن قاعدتهم بسبتة، نجدهم باستمرار

(٦٥) الأنصاري، ص ١٦١. وعن وصف السقايات انظر A. Bel, **Inscriptions de Fès**, Paris 1919, pp. 72-75.

(٦٦) ولذلك عرفت باسم «سقاية القبة» (انظر الانصاري، ص ١٦٢).

(٦٧) انظر العمري، ترجمة Gaudefroy - Demombynes (ورد ذكره أعلاه في الحاشية ٦٤) ص ١٩٧.

(٦٨) الأنصاري ص ١٦٢.

(٦٩) تتكرر الاشارات في كتاب الأنصاري الى موارد الماء، ومن الواضح تماما أن التقنية الهندسية كفلت توزيع المياه. انظر على وجه الخصوص الانصاري، ص ١٦٢ — ١٦٤.

(٧٠) انظر ابن أبي زرع، على : روض القرطاس، ط. أوبسالة ١٨٤٣، ص ٢٣٤ — ٢٣٦. Dufourcq, **Dufourcq, Esp. Catalane** p. 380,

في مواضع تمكننا من وصفهم بجنود الصف الأمامي(٧١). ان كتاب (اختصار الأخبار) أفضل المصادر المباشرة عن أهمية القوس في سبتة. ومما يبين بأنه كان للرماة منزلة الصدارة في سبتة ما يذكره الأنصاري عن وجود نحو أربعين منجرة كان نصفها يقع في الشارع الرئيسي(٧٢). ومما يقوله الأنصاري يمكننا أن نستخلص بأن مهنة الرامي كانت مهنة شريفة ومحترمة(٧٣). إلّا أن أكثر فقرات كتاب (اختصار الأخبار) إنارة عن الموضوع الفقرة التي يتحدث فيها الأنصاري بإسهاب عن التسهيلات العجيبة المتوفرة للتدرب على الرماية، مما لا يدع مجالا للشك في مكانة القوس بين أسلحة سبتة. يقول الأنصاري(٧٤) : «وعدد المرامي المعبر عنها بالجلسات وأماكن السبق(٧٥) المعلومات للرماة أربعة وأربعون مرمى. بالميناء تسع جلسات، جلسة الحفير بإزاء باب الحلويين.. المخصوصة بالقاضي وصدور الفقهاء من العدول وغيرهم، اذ الرمي طبع لأهل سبتة طبعوا عليه، فلا تلفي منهم شريفا ولا مشروفا، ولا كبيرا ولا صغيرا، إلّا وله بصر بالرمي وتقدم فيه. ومعظم رميهم بالقوس العقارة، وهو من جملة الأشياء التي تميزوا بها. ومن هذه الجلسة الى الهدف مجال للرماة من مائة وعشرين خطوة، وهو القدر المتوسط، ويعبرون عن الخطوة بالباع، ومقدار ذلك في اصطلاحهم ثلاثة أقدام. ومن ذلك جلسة مدى رميها من أربعمائة خطوة، وجلسة من أربعمائة وخمسين، وجلسة من سبعمائة، وهي من أبعد المرامي، وعلى حسب القوس في الشدة واللين. ومرمى عاشر بوسط المصلّى، وهو بانفراده للقوس العربية».

(٧١) انظر EI², ii, p. 1110 s.v Ghuzz وانظر كذلك أمين الطيبي : «الأغزاز وقدومهم الى المغرب والأندلس»، مجلة البحوث التاريخية، السنة الخامسة، العدد الثاني، طرابلس الغرب ١٩٨٣، ص ٢٨٧ — ٢٩٨.

(٧٢) الأنصاري، ص ١٥٩ وما بعدها.

(٧٣) يذكر الانصاري (ص ١٦٠) عددا من الرماة البارزين [بل المَنْجريين] منهم اثنان من الاشراف الحسنية.

(٧٤) الأنصاري، ص ١٦٦ — ١٦٧.

(٧٥) ان المسافات لبعض المرامي الواردة في كتاب الأنصاري ينبغي أن لا تؤخذ على أنها مسافات لرمية واحدة. عن جلسة الرامي عند رميه انظر J.D. Latham et W.F. Paterson, **Saracen Archery**, London 1970, pp. 102, 183 وعن «سبق» كمرادفة لـ «سباق»، انظر المرجع السابق، ص ٢٠، ١٠٤ وما بعدها، ١٩٠ وانظر كذلك على وجه الخصوص J.D.Latham, **Journal of Semitic Studies**, 13 (1968), p. 242 n. 11.

ان الفقرة السابقة من الأهمية ــ من الناحية التقنية ــ بحيث تجدر دراستها دراسة فاحصة. ان القوس الأكثر استعمالا بسبتة كان القوس العقارة. كان هذا النوع من الأقواس معروفا في أوروبا في القرون الوسطى باسم arbalista ad duo pedos، وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامي ــ لكي يجذب القوس ــ كان يثبته بوضع قدميه على طرفيه(٧٦). إن استعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامي من رمي سلاح أثقل وزنا ــ وبالتالي أقوى ــ مما كان سيرميه لو أنه استعمل قدما واحدة فقط، كما هو الحال في قوس الركاب(٧٧). ولا تتوفر لدينا معلومات دقيقة عن تركيب القوس العقارة، إلّا أنه لم يكن يختلف أساسا عن القوس الذي وصفه مؤلف مملوكي من القرن الرابع عشر الميلادي حيث يقول إن أكثر أنواع الأقواس فائدة للعمليات البحرية هو القوس المصنوع من خشب الطخش والذي يكون جذعه مصنوعا من خشب البقس أو البرتقال(٧٨). ان ما يجعلني أتقدم بهذا الافتراض هو ليس فقط لأن سبتة كانت مركزا للعمليات البحرية، بل أيضا لأن الطخش والبقش هما من بين أربعة أنواع من الخشب يذكر الأنصاري بأنها كانت متوفرة في بَلْيونَش المجاورة(٧٩). أما تفضيل خشب الطخش والبقش فيحتاج الى شيء من التفسير. إن تركيب القرن والخشب والوتر مجتمعة وملصقة بالغراء قد يكون ممتازا للأقواس العادية وأقواس اليد التي كان يستعملها رماة المماليك من على ظهور الخيل بنجاح كبير في الصحاري والسهوب، ولكن نظرا الى اثر هواء البحر المفسد للغراء، فانه كان أقل صلاحية واعتمادا عليه(٨٠).

ان تفضيل أهل سبتة للقوس العقارة على قوس اليد أمر مفهوم. فالقوس العقارة إجمالا كان يعتبر سلاحا أكثر فاعلية بالنسبة للجنود في المعاقل المحاضرة، وفي المواقف التي لا تكون فيها الحركة في الاعتبار الأول(٨١). ويمكن لهذا القوس رمي

(٧٦) عن هذا القوس انظر Saracen Archery، ص ٢٩ وما بعدها، والرسم التوضيحي رقم ٣٢.

(٧٧) كان هذا السلاح يعرف باسم قوس الركاب، انظر المرجع السابق، ص ١٩، ٢٩، ٣٠، ٨٨. انظر كذلك الرسم التوضيحي ص XXXI.

(٧٨) المرجع السابق، ص ١٧٥. [المؤلف المملوكي المشار اليه هو عمر بن ابراهيم الأوسي الأنصاري صاحب (تفريج الكروب في تدبير الحروب) وقد حققه وترجمه الى الانجليزية G.T. Scanlon، القاهرة ١٩٦١].

(٧٩) الانصاري، ص ١٧٥.

(٨٠) **Saracen Archery**, p. 19.

(٨١) المرجع السابق، ص ٨ وما بعدها، ٩ والحاشية ١٠، ١٩٧.

قذيفة مسافة بعيدة دون أن يتطلب ذلك من الرامي قدرا كبيرا من التدريب. وأهم من ذلك فإنه سلاح فعال جدا للمدى القريب، وإذا أجيد تصويبه أمكنه تحقيق درجة عالية من الدقة والتغلغل لمسافة يصل مداها الى ما بين ٦٠ و٧٠ مترا. وباختصار، فان السفن والقلاع كانت المواضع لاستخدام القوس العقارة. وهذا يفسر دون شك ذيوع استعماله في المغرب الاسلامي(٨٢). إن مدينة سبتة — وهي معقل يقوم على شبه جزيرة — كانت تجمع بين صفات السفينة والحصن، وعلى ذلك، فإن الأقواس العقارة، كانت السلاح الأمثل، خصوصا وأنها كانت تصلح للاستعمال برا وبحرا.

إن إشارة الأنصاري الى الرمي الطائر أو في الهواء إشارة مهمة. فهذا النوع من الرمي في يومنا هذا لا يعدو كونه رياضة، وفيه يستهدف الرامي أن يبلغ بسهمه أقصى مسافة. أما في القرون الوسطى فكان لهذا الرمي غرض عملي : فعن طريقه كان الرماة يتدربون على إصابة الهدف بصورة فعالة من مسافة بعيدة، وهذه مزية كبرى في حالات الحصار، فاذا تم تدريب الرماة أمكنهم استعمال قوس يد جيد وإطلاق سيل من السهام الخفيفة لمسافات يصل مداها الى نحو ٣٥٠ مترا. وأفضل سلاح لهذا الغرض ما يسميه الأنصاري «القوس العربية»، ويعني به دون شك النمط الشرقي، كالنوع المستعمل في بلاد الشام على عهد المماليك، وكان يعرف عنه بأنه صالح جدا للاستعمال في أحوال الأندلس المناخية(٨٣).

ان الرماية لم تكن دون شك مجرد رياضة لأهل سبتة(٨٤)، بل كانت أساسية للبقاء، أما كيف أفادوا من مهارتهم في سبتة ذاتها فقد كشفت عنه تفاصيل حادث ورد ذكره في أحد كتب التاريخ الحربي الاسلامية من القرن الثالث عشر الميلادي(٨٥). فحينما أخذت السفن المسيحية المحاصرة للميناء في التقهقر تحت ضغط حماة المدينة، تعذر الدوران على احدى السفن الكبيرة. وفي الحال، تعرضت السفينة لهجوم عنيف من جانب الرماة الذين حالوا دون قيامها برفع

(٨٢) المرجع السابق، ص ٩، ١٤٦.

(٨٣) انظر J.D. Latham, «Apropos of Archery in the Maghrib», Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, 1970, p. 130.

(٨٤) مع تقديرنا لما ذكره كل من J. Vallvé nd H. Terrasse, **And**, 27 (962), pp. 434, 444.

(٨٥) G.T. Scanlon (ed.), **A Muslim Manual of War**, ed. and tr. (Cairo, 1961), pp. 110 f.

القلوع، بعد أن أعطبوا حبالها بأسهمهم. وعلى الأثر، تم الوصول الى السفينة وأسرها بسهولة.

لم يقتصر استعمال الرماة على العمليات الدفاعية فحسب. إن المعارك البحرية المعتادة آنذاك كانت تسير على نمط معين : فعند الاشتباك مع سفن العدو، كان القادة البحريون (القباطنة) يمسكون بالسفينة ويصعدون الى ظهرها مستعينين بالحماية التي يوفرها لهم الرماة بالقوس(٨٦). ولا نعرف على وجه التأكيد مواضع الرماة فوق سفن سبتة، أو الكيفية التي كانوا يعملون بها، ذلك لأن المؤرخين العرب قلما يزورننا بالمعلومات عن ذلك. ومع ذلك، فلعل مما يرشدنا المعلومات التي نعرفها عن السفن المسيحية التي كانت تعمل في المنطقة. ويكمن تبريرنا في المعلومات التي توحي بقوة، بأنه بحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل، كانت سفن الموانىء المختلفة في الحوض الغربي للبحر المتوسط لا تختلف عن بعضها البعض اختلافا يذكر من حيث التصميم وطريقة العمل(٨٧). فلننظر اذن الى بعض الحقائق. يرد ذكر سفينة قطلانية عام ١٢٥٨ م كانت تحمل ١٥٠ بحارا ــ بالاضافة الى الضباط ــ وكان على ظهرها قوة دفاعية قوامها ٢٤ من الرماة بالقوس العقارة(٨٨). وعند فتح جزيرة سردانية عام ١٣٢٣ م، كان هنالك ما متوسطه ٤٠ راميا بالقوس في كل سفينة كبيرة، و ٣٠ راميا بالقوس في كل من السفن الأصغر منها(٨٩). ويبدو أنه كان ثمة تباين في النسبة بين عدد الرماة بالقوس، وبين عدد أفراد القوة المحاربة في كل سفينة. إلّا أنه يتضح من الشرط الذي وضعه قائد الأسطول Bernat de Cabrera عام ١٣٥٤ م أن النسبة ٣٠ : ٣٧ كانت تعتبر أفضل نسبة في سفينة يسيرها ١٥٦ مجذفا(٩٠). ولعل الأهمية التي كان يوليها السبتيون للرماة في سفينة حربية لم تكن دون تلك الأهمية ــ إن هي لم تفقها ــ إذ أن الأرقام التي تتوفر لدينا عن المعركة البحرية الكبرى على مقربة من الجزيرة الخضراء عام ١٣٤٠ م توحي بأنه كان للقوس والقوس العقارة

(٨٦) Robson, **EHR**, p. 391.

(٨٧) انظر أعلاه، ص I/سطر ٢٢٠ ــ ٢٣٠.

(٨٨) Dufourcq, **Esp. catalane**, pp. 51 f.

(٨٩) المرجع السابق، ص ٥٢، الحاشية ٢.

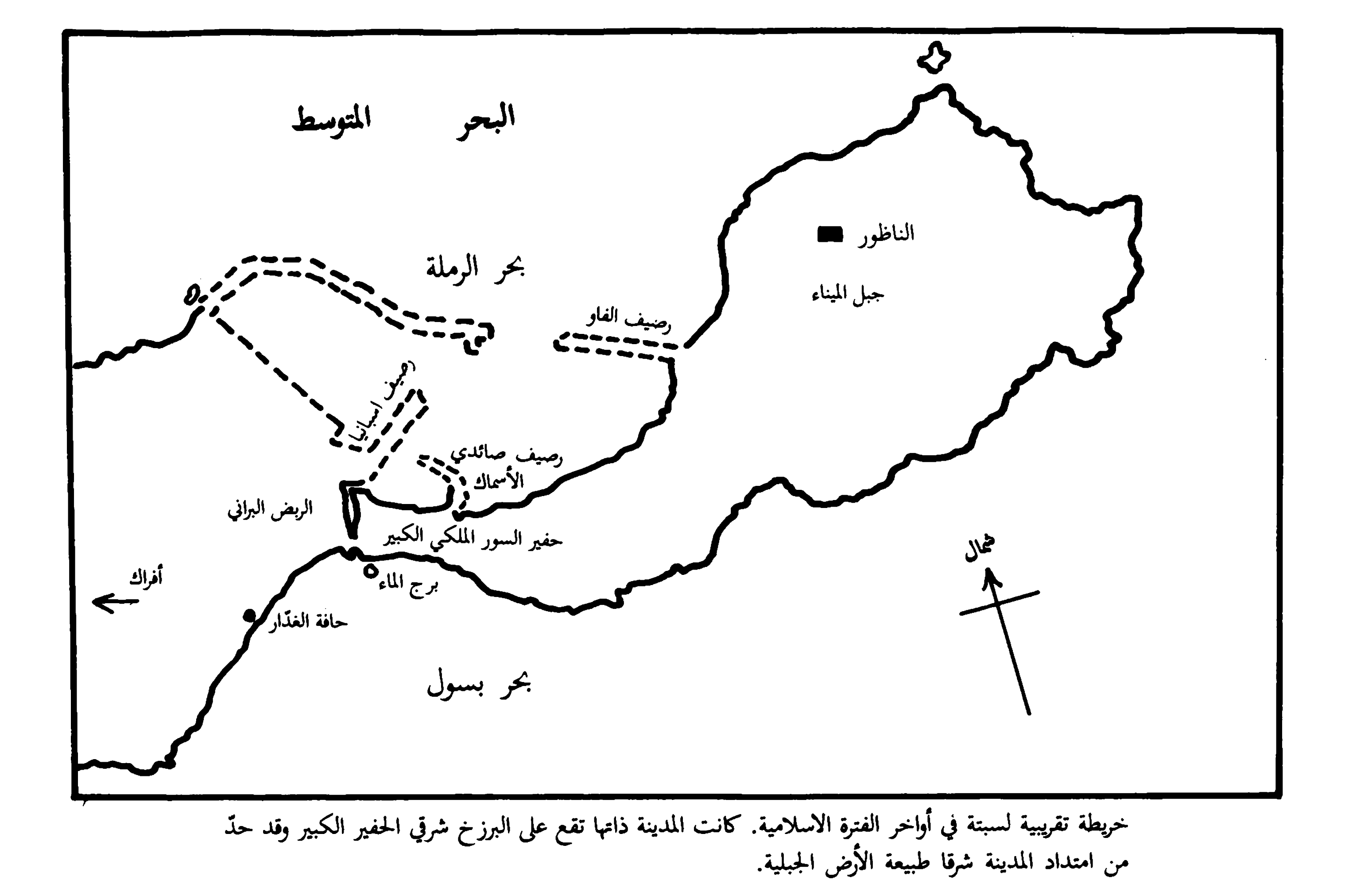
(٩٠) Robson, **EHR**, p. 392.

دور حيوي في الصراع من أجل السيطرة على بحر الزقاق. ففي تلك المعركة التي كادت أن تؤدي الى تدمير الأسطول القشتالي تدميرا تاما، ذكر بأن السلطان المريني أبا سعيد كان قد قام بتعزيز سفنه الأربع والأربعين، بحيث كان على ظهر كل سفينة منها نحو ٢٠٠ من الرماة بقوس اليد وبالقوس العقارة، تمركزوا في ثلاث قلاع في كل واحدة من تلك السفن(٩١).

وفي شهر اغسطس عام ١٤١٥ م، لم يغن المدافعون عن سبتة، كما لم تغن تحصيناتها، شيئا ضد قوات البرتغال(٩٢). ومع أن أعداد القوات البرتغالية كانت كبيرة، إلّا أن من الواضح أن السرَّ في نجاحها كان يكمن في عنصر المباغتة الذي كان قد هيأ له التخطيط الدقيق. فلما وقع الهجوم على بغتة منهم، لم يكن السبتيون ندا لغير المنتظر، فارتبكوا، وسرعان ما هزموا.

(٩١) المرجع السابق، ص ٣٩٩ ــ ٤٠٠. كان يقود اسطول المغرب في المعركة محمد بن على العزفي. انظر .Ibn Khaldun, **Berbères, iv, p. 231**

(٩٢) .Cf. A Mouliéras, **La Maroc inconnu**, Paris 1895-9, ii, pp. 726 ff.



خريطة تقريبية لسبتة في أواخر الفترة الاسلامية. كانت المدينة ذاتها تقع على البرزخ شرقي الحفير الكبير وقد حدّ من امتداد المدينة شرقا طبيعة الأرض الجبلية.

النشاط الاقتصادي والعلمي بمدينة سبتة المغربية

القرن الثامن الهجري - الرابع عشر ميلادي

تمهيد :

في عام ٨١٨ هـ /١٤١٥ م، تعرضت مدينة سبتة المغربية لعدوان برتغالي مباغت أدى الى احتلالها، وكان من وراء هذا العدوان البرتغالي دوافع دينية واقتصادية واستراتيجية في المقام الأول. ومما سهل سقوط المدينة في أيدي المُغيرين البرتغاليين ــ فضلا عن عامل المباغتة ــ ما كان يعانيه المغرب الأقصى آنذاك من تفكك واضطراب في أواخر أيام دولة بني مرين، وكذلك المنازعات القائمة بين سلاطين فاس وبين سلاطين بني الأحمر في غرناطة.

تتحكم مدينة سبتة بالملاحة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لها دور مهم في افتتاح العرب للأندلس، وظلت ــ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس ــ أندلسية الطابع.

وتكاد سبتة أن تكون جزيرة، اذ يحيط بها الماء من كافة الجهات تقريبا، مما جعل المرابطين يستعينون على أخذها بأسطول المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية.

وقد غصت سبتة بالنازحين من الأندلس ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حينما أخذت قواعد المسلمين في الأندلس ــ كقرطبة وبلنسية واشبيلية ــ تتهاوى في أيدي صاحبي قشتالة وأرغون. وقد ذكر أبو عبيد البكري (منتصف القرن الحادي عشر) بأن سبتة لم تزال دار علم،وازداد علماؤها بازدياد الهجرة الأندلسية. ومن بين أبرز من أنجبتهم سبتة من العلماء القاضي عياض بن موسى السبتي والشريف الادريسي، والفقيه المحدث ابن رُشَيْد الفهري، والكاتب البارع عبد المهيمن الحضرمي، والفقيه أبو العباس أحمد العزفي وابنه الرئيس محمد أبو القاسم العزفي، الذي أقام في سبتة أسرة حاكمة منذ منتصف القرن الثالث عشر.

واشتهرت سبتة في ميدان التجارة برا وبحرا، وكان يقصدها تجار المدن الايطالية ــ وبخاصة تجار مدينة جنوة ــ حيث كان لهم فنادق فيها. كما كانت مدينة سبتة بداية لطرق القوافل المؤدية الى غانة والسودان الغربي.

واشتهر أهل سبتة بركوب البحر وإنشاء المراكب، وكانت بالمدينة دار صناعة لانشاء السفن، كما كانت القاعدة الرئيسية لأسطول الموحدين. وكان لرماة سبتة في جيوش الموحدين وبني مرين شهرةُ الأغزاز من التركمان في الرماية.

نبذة تاريخية :

بعد افتتاح المسلمين للأندلس عن طريق سبتة فرضة المجاز قلما يرد ذكر المدينة في المصنفات الأندلسية الى أن ملكها الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) عام ٣١٩ هـ /٩٣١ م تحوطا من خطر العبيديين، واتخذها قاعدة للأسطول في بر العدوة لامداد حلفائه هناك، ومنها تم استيلاؤه على مليلة ونكور(١). وفي عهد الدولة العامرية اتخذها الحاجب عبد الملك ابن المنصور منفى للعصاة من فتيانه(٢).

(١) ابن حيان، أبو مروان حيان : المقتبس في أخبار الاندلس، الجزء الخامس، مدريد ١٩٧٩، ص ٢٨٨ ــ ٢٩٩.

(٢) ابن بسام الشنتريني، علي : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الدار العربية للكتاب١٩٧٩، ٤ /١، ص ٧٨.

وفي فترة ملوك الطوائف، انتزى في سبتة سقوت البرغواطي (٤٢٧ هـ /١٠٣٦ م) حتى قدوم المرابطين، الذين تعذر عليهم بادىء الأمر أخذ سبتة الى أن أمدهم المعتمد بن عباد بقطعة بحرية فتسنى لهم أخذ المدينة من العز بن سقوت (صفر ٤٧٦ هـ / صيف ١٠٨٣ م). ويذكر ابن بسام الشنتريني ابن العزّ هذا كان يمارس القرصنة البحرية «فضجت منه الأرض والسماء»(٣).

وقد ازدادت أهمية سبتة كفرضة المجاز الى الأندلس بعد قيام دولة المرابطين وضم الأندلس الى هذه الدولة، فازداد بالتالي الاتصال بين العدوتين. وكذلك كان الحال في عهد الموحدين، فمن سبتة كان جواز عبد المؤمن بن علي الى جبل الفتح. ان المسجد الجامع بسبتة وسور الميناء السفلي بناهما يوسف بن تاشفين(٤)، كما أن ابنه عليًّ بن يوسف عمل على اصلاح سور سبتة(٥). وبُني ليوسف بن عبد المؤمن منزل بسبتة «هو باق هناك الى اليوم [٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م]»(٦). واتخذ الموحدون سبتة قاعدة لأساطيلهم الغزوانية. يقول ابن خلدون إن سبتة كانت منذ قيام دولة الموحدين «ثغر العدوة، ومرقى الأسطول، ودار انشاءة الآلات البحرية، وفرضة الجواز الى الجهاد. فكانت ولايُتها مختصة بالقرابة من السادة بني عبد المؤمن»(٧). ويذكر صاحب (الحلل الموشية) ان يوسف بن عبد المؤمن بنى دار الصناعة بسبتة «على ما هي عليه الآن [٧٨٣ هـ /١٣٨١ م]»(٨).

ونظرا لتحكم سبتة بالملاحة في بحر الزقاق، ونشاطها التجاري، طمع الجنويون في الاستيلاء عليها، فلجأ تجارهم الموجودون فيها الى خديعة عام ٦٣٣ هـ لتحقيق هذا الهدف باءت بالفشل بفضل نصرة قبائل منطقة سبتة لصاحب المدينة آنذاك أبي العباس اليَنَشْتي(٩).

(٣) المصدر السابق ٢ /٢، ص ٦٦٢.
(٤) مؤلف مجهول الاسم : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الدار البيضاء ١٩٧٩، ص ٧٢.
(٥) ابن القطان : نظم الجمان، تطوان ١٩٦٤، ص ١١٣.
(٦) المراكشي، عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٩٤٩، ص ٢٤٨.
(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن : كتاب العبر، بيروت ١٩٥٩، ٧ /ص ٣٨٢.
(٨) الحلل الموشية ص ١٥٨، ابن عذاري : البيان المغرب، القسم الثالث، تطوان ١٩٦٠، ص ٦ — ٣٤٧.
(٩) ابن عذاري، أبو العباس، أحمد : البيان المغرب، القسم الثالث، تطوان ١٩٦٠، ص ٦ — ٣٤٧.

إن ضعف الدولة الموحدية في أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي أدى الى انتزاء أبي العباس اليَنشْتي في سبتة خمس سنوات (٦٣٠ — ٦٣٥ هـ)، ثم إلى إعلان واليها ابن خلاص ولاءه للحفصيين في تونس، واستمر هذا الولاء حتى وفاة أول سلاطين الحفصيين أبي زكرياء (٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م). وفي هذه السنة، أقنع أبو العباس حجبون الرنداحي قائد البحر كبير مشيخة سبتة أبا القاسم محمد العزفي بقبول رئاسة المدينة مع ولاء للموحدين. وعقد السلطان الموحدي المرتضى «لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلا من غير إشراف أحد من السادة ولا من الموحدين.. وعقد لحجبون الرنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب»(١٠). وفي عهد إمارة بني العزفي — التي استمرت نحو سبعين عاما — شهدت سبتة أوج قوتها ورخائها. وعمل أبو القاسم العزفي على تنمية تجارة سبتة عبر البحر المتوسط، وشارك في جهاد المرينيين في الأندلس بتزويد الأساطيل والرماة الناشبة. وبعد وفاة أبي القاسم (ت ٦٧٧ هـ /١٢٧٩ م) سار ابنه أبو طالب على السياسة ذاتها، فظل على ولاء اسمي لبني مرين، وشارك بنشاط في عمليات الجهاد في الأندلس. وكان لأسطول سبتة دور مهم في الهزيمة البحرية التي أوقعت بأسطول قشتالة في شهر يوليو ١٢٧٩ م عند حصار الفونس العاشر ملك قشتالة للجزيرة الخضراء(١١).

وفي عام ١٣٠٥ م، استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبتة بمداخلة صاحب القصبة بالمدينة، ونقل بنو العزفي الى غرناطة حيث بقوا الى أن خُلع هذا السلطان في شهر مارس ١٣٠٩ م. وفي يوليو ١٣٠٩ م — اثر ثورة داخلية بالمدينة — استسلمت سبتة للسلطان المريني أبي الربيع، الذي أذن لبني العزفي بالعودة من غرناطة والاستقرار في فاس.

وفي سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م، عاد يحيى بن أبي طالب العزفي واليا على سبتة من قبل السلطان المريني أبي سعيد. وفي سبتة، رأس يحيى مجلس شورى، وحظي باستقلال ذاتي في مقابل اداء ضريبة سنوية لسلطان فاس.

(١٠) ابن خلدون : كتاب العبر، ٣، ص ٣٨٣.

(١١) **The Encyclopaedia of Islam**, (New Edition), **Supplément** 1-2, Leiden 1980, S.V. Azafi (J.D.Latham), p. 112.

وبانتهاء ولاية العزفيين على سبتة سنة ٧٢٨ هـ / ٧ ــ ١٢٢٨ م، آلت رئاسة مجلس الشورى بالمدينة الى الشريف الحسيني أبي العباس أحمد، وكان خصما لبني العزفي ومقربا من السلطان أبي سعيد، ولعل له دورا في إنهاء رئاسة العزفيين في سبتة. والسلطان أبو سعيد هو الذي أمر ببناء البلد المسمى آفراك على سبتة سنة ٧٢٩ هـ(١٢).

ومع ذلك، فقد لمع اسم أحد العزفيين ــ وهو محمد بن علي العزفي ــ قائدا لأسطول السلطان المريني أبي الحسن، وهو الأسطول الذي دمر أسطول قشتالة قبالة الجزيرة الخضراء سنة ١٣٤٠ م، وظل محمد العزفي قائدا للأسطول الى أن لقي مصرعه بعد عشر سنوات في العمليات ضد بني عبد الواد(١٣).

والسلطان أبو الحسن هو الذي أمر بإنشاء برج الماء ببحر بَسول من ساحل سبتة الجنوبي «فصان ذلك البرج جميع المرسى، فلا يتهيأ لأحد من المراكب الدخول لذلك المرسى إلّا أن يكون صديقا، وإلّا فهو يشرف على جميع ما يدخل تحته»(١٤).

ان ضعف مملكة غرناطة، والصراع على السلطة بين أبناء البيت المريني، وكذلك المنازعات بين بني مرين وبني عبد الواد أصحاب تلمسان، كل ذلك كان له أثره في مدينة سبتة، التي كانت قد غصت بالنازحين عن الأندلس. ونشطت حركة الغزو البحري من قبل هؤلاء النازحين ضد مراكب اسبانيا وأراضيها. وردا على ذلك، هاجم صاحب قشتالة ــ هنري الثالث ــ تطوان مغتنما فرصة انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان سنة ١٣٩٩ م، ودمرها وأباد نصف سكانها واسترقّ النصف الآخر. وكان من نتيجة هذا الهجوم الوحشي أن ازداد نشاط غزاة البحر، وازدادت الحمية للجهاد ضد النصارى(١٥).

(١٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩، ٧، ص ٢٤٧.

(١٣) **EI², Supplement,** 1-2, pp. 112-113.

(١٤) ابن مرزوق التلمساني، محمد : المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الجزائر ١٩٨١، ص ٣٩٩.

(١٥) جوليان، شارل ــ أندري ــ تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس ١٩٧٨، ص ٢٤٨.

إن أعمال غزاة البحر من قواعدهم في بر العدوة كانت احدى الذرائع التي تذرع بها البرتغاليون عند عدوانهم على سبتة عام ١٤١٥ م، فضلا عن عدائهم للاسلام والمسلمين، وأطماعهم في خيرات المدينة وما ذكر عن ثرائها بفضل الاتجار مع السودان الغربي.

النشاط الاقتصادي :

أ ــ التجارة :

إن أهل سبتة ــ بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس ــ اشتهروا بمزاولتهم للتجارة، كما أنهم استغلوا ثروة مياه سبتة من المرجان والأسماك، وقامت في بلدهم بعض الصناعات كإنشاء المراكب وعمل القسي وتصنيع المرجان والصياغة وصناعة الورق والأدوات النحاسية.

ويبدو أن التجارة بين سبتة واشبيلية كانت نشطة في القرن الحادي عشر الميلادي كما يُستدلّ مما أوروده ابن بسام الشنتريني من أن المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية اعتقل تاجرا من سبتة، وعلى الأثر اعتقل صاحب سبتة سقوت البرغواطي عدة تجار من اشبيلية، فنشأت بينهما وحشة سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٥ م «وقامت حروب هلك فيها رجال وتلفت أموال»(١٦). ويضيف ابن بسام بأن سَقُّوت هذا كان يمارس القرصنة بحرا «فضجت منه الأرض والسماء»(١٧).

ويشبه ابن سعيد المغربي (أواخر القرن الثالث عشر الميلادي) سبتة بمدينة الاسكندرية «في كثرة الحط والاقلاع، وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة»(١٨).

ويحدثنا ابن بطوطة بأنه أثناء وجوده في مدينة قنجنفو (Fuchow) بالصين في منتصف القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي قابل تاجرا من سبتة ــ قوام الدين السبتي ــ كان قد وصل الى الصين حيث «عظم شأنه واكتسب الأموال

(١٦) ابن بسام الشنتريني، ٢ /٢، ص ٦٥٨.
(١٧) المصدر السابق، ٢ /٢، ص ٦٦٢.
(١٨) ابن سعيد المغربي، على : كتاب الجغرافيا، بيروت ١٩٧٠، ص ١٣٩.

الطائلة». وبعد ذلك ببضع سنوات، قابل ابن بطوطة أخا لهذا التاجر السبتي في السودان الغربي(١٩).

كان لسبتة منذ قيام دولة الموحدين تجارة مزدهرة مع بلدان الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبخاصة جنوة وميورقة وبلنسية وكانت سبتة — على حد قول ابن الخطيب — «محطّ قوافل العصير والحرير والكتّان»(٢٠). وغدت سبتة بالتالي منفذا لمنتجات المغرب والسودان الغربي ومركزا لتصريف السلع التي يجلبها تجار جنوة ومرسيليا ومملكة أرغون. وبالنسبة للتجار الجنوبيين، احتلت سبتة مكان الصدارة بين موانىء شمال افريقيا، وحلت محل بجاية، وأصبحت محطة لرحلات المراكب من جنوة الى اسبانيا وفرنسا، بل — وكما يتبين من رحلة ابن جبير — أصبحت سبتة نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية الى المشرق(٢١). وكان تجار مرسيليا — عن طريق وكلائهم من اليهود في سبتة — يبيعون عملات عربية (أنصاف دراهم (Millares) تضرب في منوبيلييه(٢٢).

وفي عهد بني العزفي (٦٤٧ — ٧٢٨ هـ /١٢٤٩ — ١٣٢٨) حظيت سبتة بفترة من النشاط التجاري والازدهار الاقتصادي، بل إن السفن كانت تستأجر من بعض الدول البحرية بحوض البحر المتوسط. ويستفاد من نص مؤرخ في سنة ١٣٠٢ م أن صاحب سبتة أبا طالب العزفي كان شريكا في ملكية سفينة قطلانية(٢٣).

ان ثراء سبتة أطمع فيها الجنويين الذين حاولوا — دون جدوى — الاستيلاء عليها بالخديعة عام ٦٣٣ هـ، فانتهبت أموالهم التي في فنادقهم، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبتة الجنويين عما فقدوه(٢٤).

(١٩) ابن بطوطة، محمد : رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٩٦٨، ص ٦٢٦.
(٢٠) ابن الخطيب، لسان الدين : معيار الاختبار، ضمن كتاب (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس) لأحمد مختار العبادي، الاسكندرية ١٩٨٣، ص ١٠٢، والعصير هو زيت الزيتون.
(٢١) **Krueger, H., "Genovese Tradewith North-west Africa".., in Speculum, III (1933), p 382.**
ابن جبير، محمد : رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٨، ص ٨.
(٢٢) جوليان، ص ١٦١.
(٢٣) ليثام : «موقع سبتة الاستراتيجي»، ص I/سطر ٥٦ — ٥٨، هامش ١١.
(٢٤) ابن عذارى، ٣ /ص ٣٤٦ — ٣٤٧.

ومما ساعد على ازدهار سبتة في هذه الفترة بعدها عن العواصم السياسية للمغرب الأقصى وعن الفتن والقلاقل الداخلية، مما جعل تبعيتها لمراكز السلطة في الغالب تبعية اسمية(٢٥).

وفي أوج حكم العزفيين، حظيت سبتة بقوة سياسية واقتصادية حقيقية، حتى إن صاحب أرغون ـــ جيمس الأول ـــ عقد معاهدة سلم مع صاحب سبتة (فبراير ١٢٦٩ م)، فكان ذلك أول اتفاق يعقد بين صاحب أرغون وبين دولة مغربية. وفي عام ١٢٩٤ م، عينت أرغون سفيرا لها لدى أبي حاتم العزفي(٢٦).

ويبدو أن تجار جنوة كانوا يجلبون الى سبتة طراف السلع، كما يتبين من قصة القائد أبي السرور ـــ صاحب ديوان سبتة ـــ الذي أنعم على الأديب النحوي أبي عمران موسى الطرياني «بتحف مما يكون في الديوان مما يجلبه الافرنج الى سبتة»(٢٧).

ان السلطان المريني أبا الحسن حرص على تأمين طرق القوافل ما بين فاس والمدن الأخرى كسبتة، وذلك بإنشاء مراكز على طول الطرق يجري لساكنيها إقطاعا من الأرض «ويلزمون فيها بيع الشعير والطعام، وما يحتاج اليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون اليها هم وبهائمهم، ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم، فان ضاع شيء تضمنوه»(٢٨).

انّ الوصف الذي تركه لنا عن سبتة أحد أبنائها محمد بن القاسم الأنصاري في كتابه (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار) يدل على أن المدينة ـــ حتى أوائل القرن الخامس عشر ـــ كانت تنعم بالرخاء والازدهار والعمران. فالأنصاري يحدثنا عن أسواق سبتة وحوانيتها وتربيعاتها وفنادقها، فيقول ان عدد الأسواق ١٧٤ سوقا «ومن أشرفها قدرا وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم... والسوق الكبير وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقي من المدينة. ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية [النحاسية] سوق السقاطين، وما أدراك ما

(٢٥) ليثام : «موقع سبتة الاستراتيجي» ص I/سطر ٥٨ ـــ ٦١، هامش ١٣.
(٢٦) نفسه، ص. ص I/سطر ٧٦ ـــ ٨٥.
(٢٧) المقّري، أحمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت ١٩٦٨، ٤ /ص ١٣١.
(٢٨) ابن مرزوق التلمساني، ص ٤٢٩.

سوق السقاطين : رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب ووضع»(٢٩).

أما عدد الحوانيت فأربعة وعشرون ألفا، وعدد التربيعات [الأسواق الصغيرة المربعة الشكل] للحرارين والقزازين خاصة إحدى وثلاثون تربيعة.

وكان بسبتة ٣٦٠ فندقا «أعظمها بناء وأوسعها ساحة الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع [القمح]، وهذا الفندق من بناء محمد العزفي... يحتوي على ٥٢ مخزنا ما بين هُرْي وبيت..»(٣٠). ويليه من الفنادق المعدة لسكنى التجار وغيرهم فندق غانم، ويشتمل على ثلاث طبقات وثمانين بيتا [حجرة] وتسع مصريات [شقق]». ويميل الأنصاري الى الظن بأن فندق غانم من بناء المرابطين، والأرجح أنه من أيام الموحدين، ولعله يحمل اسم غانم ابن مردنيش قائد الأسطول الموحدي بسبتة على عهد ثاني سلاطين الموحدين يوسف بن عبد المؤمن. وثمة فندق الوهراني، وعلى بابه عقاب غريب الشكل(٣١).

ويتحدث الأنصاري عن ديار الاشراف المالي فيقول إنها أربعة : دار الاشراف على عمالة الديوان أمام فنادق تجار النصارى — وفنادقهم سبعة — ودار الاشراف على سكة المسلمين، ودار الاشراف على شد الأمتعة وحلها [الجمارك]، ودار الاشراف على البناء والنجارة وما يتصل بها(٣٢).

ب — الصناعات :

لما كانت مياه سبتة غنية بالمرجان الجيد فإنها كانت تصدره الى الأندلس والمشرق والهند. ويذكر ابن حوقل (منتصف القرن العاشر الميلادي) أنه يعمل من المرجان بسبتة «قويريات [أواني] لطاف»(٣٣).

ويذكر الشريف الادريسي — وهو من أبناء سبتة — أنه يصاد بمدينة سبتة «شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار. وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه، ومنها

(٢٩) الأنصاري، محمد بن القاسم : اختصار الأخبار.. الرباط ١٩٨٣، ص ٣٦.
(٣٠) نفسه، ص ٣٨.
(٣١) نفسه، ص ٣١.
(٣٢) نفسه، ص ٤١ — ٤٢.
(٣٣) ابن حوقل، محمد : كتاب صورة الأرض، بيروت (بدون تاريخ)، ص ٧٩.

يتجهز به الى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا»(٣٤). ومما يذكر أنه كان على المرجان الأحمر طلب وإقبال كبيران في بلدان المحيط الهندي التي لم يتوفر لديها. سوى المرجان الأبيض(٣٥).

ولما كانت الأخشاب الصالحة تتوفر في أحواز سبتة، فإن المرابطين والموحدين أنشأوا فيها دورا لصناعة السفن. ويذكر صاحب (الحلل الموشيَّة) أن ثاني خلفاء الموحدين يوسف ابن عبد المؤمن «بنى دار صنعة الانشاء بسبتة على ما هي عليه الآن [٧٨٣ هـ /١٣٨١ م] »(٣٦). ويتحدث الأنصاري عن دار الصناعة في مضرب الشبكة، ولعلها — كما يرى الباحث الأستاذ ديريك ليثام — كانت غير بعيدة عن مرسى العبارة الى الجزيرة الخضراء، أي قرب رصيف اسبانيا Muelle de Espana(٣٧).

وكان عدد المنْجَزات لبناء المراكب وعمل القسي — التي اشتهرت سبتة بصنعها — أربعين منجرة، بقي منها في زمان الأنصاري خمس عشرة منجرة(٣٨).

أما المقاصر (المصابغ) فعددها ٢٥ مقصرا «وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب... ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به، تحط فيه الامتعة ليلا وتنشر نهارا الى أن تتم قصارتها وتتخلص، فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص، ولا تكلف بحملها بالغداة والعشيِّ مؤونة كما في سائر البلاد»(٣٩).

(٣٤) الادريسي، محمد : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الجزائر ١٩٥٧، ص ١٠٨.

يذكر الحسن الوزان أن سبتة اشتهرت بعمالها المهرة «في المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجفان والمحابر وغيرها، وكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة. وقد رأيت بعضها في ايطاليا، وكثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشقي»، الحسن الوزان، وصف افريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٨٠، ص ٢٤٥.

(٣٥) Lombard, M., **The Golden Age of Islam,** The Netherlands 1975, p. 66

(٣٦) الحُلل المَوْشية، ص ١٥٨.

(٣٧) ليثام : «موقع سبتة الاستراتيجي»، صص I/سطر ٢٠٥ — ٢١٦.

(٣٨) الأنصاري، ص ٣٧.

(٣٩) نفس المصدر، ص ٤٩.

واشتهرت سبتة شهرة شاطبة بشرق الأندلس بإنتاج ورق عرف بالورق السبتي، وكان بفاس مصانع لانتاج مثل هذا الورق(٤٠).

ج ــ الغلات الزراعية والبحرية والغابات :

يبدو أن مدينة سبتة لم تكن تفتقر للماء العذب منذ أقدم العصور. فابن حَوْقل (منتصف القرن العاشر الميلادي) يقول : إن ماء سبتة من داخلها يستخرج من آبارها، كما أن في خارجها أيضا آبارا كثيرة عذبة الماء(٤٧).

أما البكري ــ بعد ابن حوقل بقرن من الزمن ــ فيقول إن حمامات سبتة يجلب اليها الماء على الظهر من البحر، ثم يضيف في موضع آخر بأن «الماء يجلب في قناة من نهر أويات [على بعد ثلاثة أميال من المدينة] على ضفة البحر القبلي [بحر بسول] الى الكنيسة، التي هي اليوم (٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) الجامع»(٤٢). وبعد البكري بقرن من الزمن، يذكر الشريف الادريسي وجود عين ماء لا تجف البتة بأعلى الجبل في وسط المدينة»(٤٣).

وكان ثالث خلفاء الموحدين أبو يعقوب المنصور أمر سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٤ م بجلب الماء الى سبتة من قرية بَلْيونَش ــ على ستة أميال غربيها ــ في قناة تحت الأرض، إلّا أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧ هـ /١١٩١ م(٤٤).

ان كثرة الحمامات والسقايات التي يذكرها الأنصاري بشيء من التفصيل تدل على أن سبتة لم تكن تفتقر الى الماء، فهو يقول إن عدد السِقايات بالمدينة ٢٥ سُقاية، منها سقايات معدة لسقي الدواب كسقاية جب الميناء الذي ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم محمد العزفي بالربض البراني(٤٥). وعند الحديث عن الطواحين ــ وعددها ١٠٣ ــ يقول الأنصاري : إن جميع هذه الطواحين

(٤٠) جوليان، ص ١٦٠.
(٤١) ابن حوقل، ص ٧٩.
(٤٢) البكري، أبو عُبيْد عبد الله : المُغرب في ذكر بلاد المغرب (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك)، باريس ١٩٦٥، ص ١٠٣ ــ ١٠٤.
(٤٣) الادريسي، ص ١٠٧.
(٤٤) مؤلف مجهول الاسم : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ١٩٥٨، ص ١٣٨
(٤٥) الأنصاري، ص ٣٩ ــ ٤٠.

بمياهها فيها، لا تفتقر ولا تحتاج الى شراء ماء من سقّاء... وكذلك جميع مساكن سبتة حيثما كانت بأقطار المدينة، حتى ذلك موجود في المصريات والعليات المحملة»(٤٦). ويبدو من هذا الوصف أن الماء كان يجري توزيعه في مدينة سبتة بحيل هندسية.

وكان بسبتة من البساتين والأجنة منذ القرن العاشر الميلادي ما يقوم بأهلها، على حد تعبير ابن حوقل(٤٧)، أي أن المدينة كانت مكتفية ذاتيا من ناحية الخضراوات والفواكه. أما أحواز سبتة فلم تشتهر بزراعة الحبوب، مع أن سبتة ذاتها كانت منفذا مهما لصادرات المغرب من القمح(٤٨). ولذلك نجد أهل سبتة يحرصون على إنشاء المطامير ــ أي الاهراء تحت الأرض ــ لخزن القمح للتصدير والاستهلاك المحلي، وكان عدد هذه المطامير أربعين ألفا ما عدا مخازن الفندق الكبير والأهراء التي بالقصبة «يمكث الزرع [القمح] في هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية. فسبتة في ذلك شبيهة بقاعدة طليطلة من بر الأندلس»(٤٩).

واشتهرت سبتة ــ فضلا عن المرجان ــ بوفرة أسماكها. يقول الادريسي انه «يُصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكثير. وصيدهم له يكون زَرْقًا بالرماح.. تنشب في الحوت ولا تخرج. ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين»(٥٠).

ويقول الأنصاري إن عدد المضارب (أماكن ضرب شباك السمك) تسعة مضارب، منها ما هو بداخل سبتة، ومنها ما هو خارجها. أما المصايد التي كان على علم بها فكانت نحو ٣٣٠ مصيدا»(٥١).

وفي أحواز سبتة تتوفر أشجار «الأرز والبلوط والطخش والبقس وما أشبهه من

(٤٦) نفسه ص ٤٣.
(٤٧) ابن حوقل، ص ٧٩.
(٤٨) Krueger, p. 382. يذكر الحسن الوزان أن بادية سبتة فقيرة ووعرة مما جعل المدينة تعاني دائما من قلة الحبوب (الوزان ١ ص ٢٤٦).
(٤٩) الأنصاري، ص ٤٢.
(٥٠) الادريسي، ص ١٠٨.
(٥١) الأنصاري، ص ٥١.

مكارم الخشب وأنواعه، ومعادن الحديد والقار.. مما يعود نفعه على الثغر، ويستعان به على الانشاء [انشاء السفن] وما يرجع الى الأمور الجهادية [صنع القسيّ]»(٥٢).

ومما تقدم يبدو أن قضية التموين لم تكن تشغل بال أهل سبتة في أيام السلم والحرب على السواء، ما لم تتعرض المدينة — كما حدث في سنة ١٢٧٤ م — لحصار من البر والبحر معا(٥٣).

النشاط العلمي بمدينة سبتة :

إن نشاط سبتة لم يقتصر على نشاطها في مجالات البحر والتجارة والصناعة، فقد كانت المدينة منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي مركزا مرموقا للدراسات العربية والفقهية والطبية، بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها، وهي العناصر التي تزايد عددها منذ أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وخاصة بعد سقوط اشبيلية عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م. وتزخر كتب التراجم والطبقات بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين وأطباء من أبناء سبتة من أصول أندلسية، من أشهرهم القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ /١١٤٩ م)، والشريف الادريسي، وابن رُشيد الفهري، وأبو العباس العزفي، وابنه أبو القاسم العزفي، وعبد المهيمن الحضرمي، وابن عبد المنعم الحميري، وأبو القاسم التجيبي.

يذكر أبو عُبيد البكري (ت ٤٨٧ هـ /١٠٩٤ م) سبتة فيقول إنها «لم تزل دار علم»(٥٤). ويصفها لسان الدين بن الخطيب في إحدى مقاماته بأنها «بصرة علوم اللسان... وخزانة كتب العلوم»(٥٥). وكانت المناظرات الأدبية تجري بين علماء سبتة، كالمناظرة التي جرت حول استعمال «ماذا» بين النحوي الشهير ابي الحسين بن أبي الربيع، وبين الاديب مالك ابن المرحّل(٥٦). ولمالك بن المُرحَّل في سبتة :

(٥٢) نفسه، ص ٥٦ — ٥٧.
(٥٣) ليثام : «موقع سبتة الاستراتيجي»، ص I/سطر ٢٣١ — ٢٣٨.
(٥٤) البكري، ص ١٠٣.
(٥٥) ابن الخطيب : معيار الاختيار، ص ١٠٢.
(٥٦) المقري، ٤ /ص ١٤٥.

سلام على سبتةَ المغربِ أُخيَّـةِ مكـــة أو يثربِ

ولعل هذا البيت هو الذي حدا بلسان الدين بن الخطيب الى القول عن أهل سبتة وتعصبهم لبلدهم إنهم لا يفضلون «على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة»(٥٧). كما أن رسالة الشقندي في فضائل أهل الأندلس كان الباعث على كتابتها جدل وقع في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى بن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب(٥٨).

ومن كبار أعلام سبتة في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن رشيد الفهري (ت ٧٢١ هـ /١٣٢٢ م) الذي ألف بعد رحلته الى الشرق وتأديته فريضة الحج كتاب (ملء العَيْبة فيما جُمع بطول الغَيْبة). وأبو محمد عبد المهيمن الحضرمي (توفي في تونس سنة ٧٤٩ هـ /١٣٤٨ م في الطاعون الجارف) الكاتب البارع الضليع في العربية، ومن كتاب بني مرين، وهو من بيوتات سبتة، وكان والده محمد ولي قضاء سبتة أيام بني العزفي وغرب معهم الى غرناطة، وكان مجلسه «يغص بعمائم العلماء، وهم كأنما على رؤوسهم الطير هيبة له وتأدبا معه»(٥٩).

ويذكر الأنصاري مدرستين شهيرتين بسبتة : مدرسة الشيخ المحدث علي الشاري الغافقي السبتي، والمدرسة الجديدة التي ابتناها السلطان المريني أبو الحسن، ويصفها ابن مرزوق بأنها كانت غاية(٦٠).

وفي أواخر القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، كان عدد الخزائن العلمية بسبتة ١٧ خزانة «تسع بدور الفقهاء والصدور كبني القاضي الحضرمي، وبني أبي حجة وأشباههم، وثمان موقفة على طلاب العلم، أقدمها الخزانة الشهيرة خزانة الشيخ علي الشاري... التي بالمدرسة المنسوبة اليه التي ابتناها من ماله،

(٥٧) ابن الخطيب : معيار الاختيار، ص ١٠٢.
ابن القاضي، أحمد : درة الحجال في أسماء الرجال، تونس ١٩٧٢، ٣ /ص ٢٦.
(٥٨) المقري، ٣ / ص ١٨٦.
(٥٩) النُباهي، أبو الحسن : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، بيروت (بدون تاريخ)، ص ١٣٢.
(٦٠) الأنصاري، ص ٢٧، ابن مرزوق التلمساني، ص ٤٠٦.

وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم»(٦١). كان الشيخ علي الشاري جمّاعة للكتب «انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها.. وعيَّن لها من خيار أملاكه وجيِّد رباعه وقفا صالحا، سالكا في ذلك طريق أهل المشرق»(٦٢).

وقد أورد صاحب (بُلْغة الأمنية) أسماء سبعة وأربعين رجلا وامرأة واحدة من علماء سبتة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في مختلف الفنون والعلوم(٦٣). وفيما يلي نبذ يسيرة عن أربعة من علماء الطبقة الأولى :

١ ــ أبو عبد الله محمد بن هاني اللخمي (ت ٧٣٣ هـ /١٣٣٣ م)، وكان موضع إقرائه بمسجد القفال «يديره ظهره الى جوار القبلة من بعد صلاة الصبح، ويمشي دولة [محاضرة أو درسا] اثر دولة في الفنون العلمية الى أن تزول الشمس. وفي بعض الأوقات، يقول له الطلبة : يا سيدي، هذه جنازة قد أتي بها، فينصرف». وقد استُشهد مدافعا عن جبل الفتح(٦٤).

٢ ــ أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي : سبتي حافظ للغات العرب... كان يقرىء الطلبة في المجلس الواحد دولا في علوم شتى. وآخر ذلك دولة في الطب. ويدخل اليه أصحاب العلل والزمنى شيوخا وكهولا لحضور دولته الطبية(٦٥).

٣ ــ أبو القاسم بن عمران الحضرمي (ت ٧٥٠ هـ /١٣٤٩ م) : يحمل صحيح البخاري عن الحجّار، وهو سند عال متصل السماع لا نظير له في المغرب؛ وكان ناظرا في خزانة الجامع الأعظم(٦٦).

٤ ــ أبو عبد الله محمد بن زيد السمّار : فقيه مشارك قعد للإقراء «ثم ترك ذلك كله وأناب وتزهد، وانتقل... إلى السعي في طلب الحلال من وجوه الجائزة،

(٦١) الأنصاري، ص ٢٩.
(٦٢) ابن الخطيب، لسان الدين : الاحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة ١٩٧٧، ٤ /ص ١٨٨.
(٦٣) مؤلف مجهول الاسم : بُلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب. تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، الرباط ١٩٨٤.
(٦٤) بُلْغة الأمنية، ص ٢٣.
(٦٥) نفسه ص ٢٤ ــ ٢٥.
(٦٦) نفسه، ص ٣١ ــ ٣٢.

فكان يسمر الدواب ولا يتعرض لتسمير الخيل والبغال خشية أن يقصده بذلك الأمراء»(٦٧).

ومن رجال الطبقة الثانية في (بُلغة الأمنية) :

أبو محمد قاسم بن أبي حجة الأنصاري (ت ٨٠٢ هـ/١٤٠٠ م) أستاذ المدرسة الجديدة (مدرسة السلطان أبي الحسن)، وكان فقيها محدثا صوفيا فَرضيا حسابيا مشاركا في أصول الدين والنحو والتاريخ. «وكان متوددا للطلبة مباسطا لهم، حسن التعليم والالقاء، حريصا على الافادة»(٦٨).

أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسني الادريسي قاضي سبتة، وهو إمام في العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض. كان يُقرىء من كتب العربية جمل أبي القاسم وألفية ابن مالك، يقرب العبارات الى أفهام المبتدئين من الطلبة. وكان له عناية باقتناء الكتب العلمية وبحث عن أصولها العتيقة(٦٩).

ومن مشاهير أطباء سبتة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي :

١ ــ الطبيب الماهر الأشهر أبو عبد الله محمد الشريشي (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٣ م) المعروف عند العامة بحكيم الرعاء. استدعاه السلطان أبو عنان الى حضرته، وكان السلطان يقول : اختصت سبتة بأربعة رجال دون سائر بلاد المغرب، كملوا في عصرهم خَلْقا وخلُقًا، وسماهم، من جملتهم الطبيب أبو عبد الله هذا(٧٠).

٢ ــ الطبيب أبو عبد الله محمد الجيَّاني (ت أواخر ٧٨٩ هـ/١٣٨٧ م) وكان ــ فضلا عن معرفته بالطب ــ مهندسا من أهل النجدة ممارسا للحروب الجهادية. قدّمه السلطان أبو العباس بن أبي سالم ناظرا على البناء بسبتة(٧١).

(٦٧) نفسه، ص ٣٢.
(٦٨) نفسه، ص ٤٤ ــ ٤٥.
(٦٩) نفسه، ص ٤٩ ــ ٥١.
(٧٠) نفسه ٥١ ــ ٥٢.
(٧١) نفسه ص ٥٣ ــ ٥٥.

٣ ــ الطبيب أبو عبد الله محمد بن مروان المعافري (ت ٨١٧ / أوائل ١٤١٥ م)، وكان حسن الاطلاع على كتب الأوائل والمتأخرين في الطب «عارفا بالعلل... بصيرا بالعقاقير والأعشاب والنبات... وولي آخر عمره النظر في كتب الخزانة الشهيرة التي بشرقي صحن الجامع العتيق بها، فانتفع الطلبة مدة نظره بكتبها الطبّية بسبب إرشاده وإفادته»(٧٢).

٤ ــ الطبيبة عائشة ابنة الشيخ الكاتب أبي عبد الله بن الجيار المحتسب بسبتة. قرأت علم الطب على صهرها الشيخ ابي عبد الله الشريشي ونبغت فيه. وكانت امرأة عاقلة عالية الهمة، نزيهة النفس، معروفة القدر لمكان بيتها، عارفة بالطب والعقاقير، وكانت لها رباع تغتلها عهدت بتوقيفها في وجوه البر وسبيل الخيرات(٧٣).

(٧٢) نفسه ص ٤٥ ــ ١٥٥.
(٧٣) نفسه، ص ٥٥ ــ ٥٦.

بنو العزفي أصحاب سبتة

(١) قيام بني العزفي

في عام ١٤١٥ م سقطت مدينة سبتة في أيدي البرتغاليين، ومنذ ذلك التاريخ الى الآن بقيت المدينة في أيدي الأوروبيين. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت معظم المتخصصين في تاريخ العالم العربي يولونها أهمية ضئيلة نسبيا(١). وبالتأكيد فإن الأهمية الحقيقية التي حققتها سبتة كثيرا ما تغيب حتى عن المتخصصين في تاريخ المغرب الاسلامي. وينطبق هذا القول كذلك على أسرة اشتهرت في تاريخ سبتة في وقت لم تكن فيه المدينة أهم ممتلكات المسلمين الاستراتيجية في المغرب(٢) فحسب، بل كانت أيضا أحد الموانىء التجارية الكبرى في البحر المتوسط. هذه الأسرة هي أسرة بني العزفي التي رأى أسلافُ ابن خلدون أن من

(١) ان Dufourcq الذي قدم بعض المساهمات المهمة بالنسبة لتاريخ سبتة (كما في **ECM, QC**) لا يندرج ضمن هذه الفئة إذ إنه أساسا مؤرخ لأوروبا. وينبغي أن نذكر بصورة عابرة بأنه مع أن كتاب هذا الباحث **QC** يتناول بني العزفي، إلّا أن دراستي هذه أكثر تفصيلا واعتمادا على المصادر العربية. كما أن التواريخ وتفسيري للمعلومات كثيرا ما تختلف اختلافا كبيرا عما أورده Dufourcq.

(٢) كما أبيِّن أدناه ص I/سطر ٨٦ ــ ٨٩ فان سبتة مكّنت المسلمين من الاحتفاظ بكيان مستقل في اسبانيا لمدة قرنين أكثر مما كان سيحدث. ان سبتة لم تكن «الباب المؤدي إلى افريقيا» أو شيئا من هذا القبيل، بل كانت الباب المؤدي الى اسبانيا.

المناسب سياسيا مصاهرتها(٣) والتي كانت قوة في ذروتها تحظى باحترام حذر من جانب تاج أرجون في فترة قوة المملكة الأرجونية ـــ القطلانية. وعلى ذلك، فقد أخذتُ على عاتقي مهمة تدوين تاريخ هذه الأسرة.

يبدأ تاريخ بني العزفي فعلا بفقيه سبتي هو أبو العباس أحمد الذي يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيها وعالما ومحدثا وقاضيا(٤). واذا سلّمنا بدقة لتاريخين اللذين أوردهما أحمد بابا في كتاب (نيل الابتهاج)(٥) وأخذناهما جنبا الى جنب مع المعلومات التي أوردها أبو الحسن علي بن محمد الرُعيني(٦)، فان أبا العباس ولد في ١٧ رمضان ٥٥٧ هـ / ٣٠ أغسطس ١١٦٢ م وتوفي ـــ وهو في السبعينات من عمره ـــ في ٧ رمضان ٦٣٣ هـ / ١٦ مايو ١٢٣٦ م. ويذكر المقّري نسبه على أنه «ابن محمد بن الحسين ابن الفقيه الامام علي (المعاصر لابن أبي زيد) بن محمد بن سليمان بن محمد الشهير بابن أبي عزفة»(٧). ان هذا النسب يبدو لأول وهلة أكثر اجتذابا من النسب الذي أورده أحمد بابا وهو «ابن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عرفة»(٨). فأولا، يبدو أن «ابن أبي عرفة» تصحيف واضح لـ «ابن ابي عزفة» التي جاءت منها النسبة «العزفي» وإلّا لتعذّر تفسير هذه النسبة(٩). وثانيا، فان تكرار الاسمين «محمد» و«أحمد» يوحي بوقوع خطأ كتابيٍ مبدئي تعزز فيما بعد بادخال عنصر من الخيال. وثالثا، فان عبارة «الفقيه الامام علي المعاصر لابن أبي زيد» لها أهميتها اذ لا بد لمن له إلمام بالفقه المالكي أن يفكر أولا بالرئيس الشهير للمدرسة المالكية في القيروان ابن أبي زيد القيرواني (٣١٠ ـــ ٣٨٦ هـ / ٩٢٢ ـــ ٩٩٦ م)، ثم بابن شهير للمدرسة ذاتها وهو علي بن محمد اللخمي (ت ٤٧٩ هـ /١٠٨٦ م)(١٠). ومع ان الاخير

(٣) انظر أدناه، ص I/سطر ٥٢٠ ـــ ٥٢٤.
(٤) أزهار، ٢ /ص ٣٧٥.
(٥) هامش كتاب (الديباج المُذهَب) لابن فرحون، القاهرة ١٣١٥ هـ، ص ٦٣
(٦) برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق ابراهيم شبُّوح، دمشق ١٩٦٢، ص ٤٦.
(٧) أزهار، ٢ /ص ٣٧٤.
(٨) ينظر في موضعه.
(٩) نجد تصحيفات عديدة : عزفي، عربي.
(١٠) انظر جدول «مدرسة افريقية» في كتاب ابن رحّال المعداني : تضمين الصنّاع، تحقيق J. Berque، الجزائر ١٩٤٩، ص ٧٩.

لا يمكن أن يوصف بأنه معاصر للأول، إلّا أن من الممكن أن والده كان كذلك، ويمكن اغتفار خطأ من هذا القبيل. وبالتأكيد فان النسبة «اللخمي» مناسبة، اذ أنها نسبة حملها كذلك أفراد من أسرة العزفي(١١). إلّا أن شهادة أحمد بابا تسندها رواية الرعيني الذي عرف أبا العباس شخصيا وتحصل على اجازة منه(١٢). يذكر الرعيني نسب شيخه فيقول : «أبو العباس أحمد ابن القاضي أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد اللخمي، عُرف بابن أبي عزفة»، ويضيف بأنه «هكذا كتب لي اسمه بخطه»(١٣). وحيث إنه ليس ثمة ما يدعو الى الشك في صدق الرعيني، فان رواية المقّري لا يمكن قبولها.

إننا لا نعرف شيئا عن أجداد أسرة العزفي. ومن المشكوك فيه أن تكون الأسرة من أصل أندلسي(١٤)، خصوصا وان نسب أبي العباس يخلو من أية نسبة الى الأندلس، أو الى مدينة أو جهة أندلسية. إن النسبة الأندلسية افتراض لا مبرر له لا يقوم على ما يحتمل إلّا على كون قبيلة لخم العربية التي يُنسب اليها الفقيه كانت واسعة الانتشار في الأندلس(١٥)، وعلى وجود نسبة عالية من العناصر الأندلسية في مدينة سبتة التي هي في أساسها مدينة عربية أندلسية على اتصال وثيق ومستمر بالأندلس(١٦). إلا أن سلف أبي العباس لعله قدم من افريقية (ورواية المقّري عن نسبه ــ مهما كان فيها من خطأ من نواح أخرى ــ قد تكون مُصيبة في ربطه بالقيروان) أو من جزء آخر من بلاد المغرب. وجدير بالملاحظة ما يُنسب الى الأندلسي أبي البركات بن الحاج البلّفيقي (١٣١٣ ــ ١٣٧٠)(١٧) قوله بان أصل بني العزفي ــ كما تزعم بعض أهل سبتة ــ من مَجْكَسَة من البربر(١٨).

(١١) نيل الابتهاج، ينظر في موضعه. أزهار، ٢ /ص ٣٧٦.

(١٢) برنامج الرعيني، ص ٤٣.

(١٣) المصدر السابق، ص ٤٢.

(١٤) حاشية المحقق رقم ١، ص ٢٣٥، (نُفاضة الجراب) لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي، القاهرة (بدون تاريخ).

(١٥) انظر
E. Terès, «Linajas arabes en al-Andalus», in **Al-Andalus**, 22 (1957), pp. 352, 355.

(١٦) Cf. Terrasse in **Al-Andalus**, 27 (1962), p. 442.

(١٧) انظر عنه **EI²**, s.v. Ibn al-Hadjdj (Vol. 3, p. 780) وتسمية «البلّفيقي» وردت هكذا في (التعريف) لابن خلدون، ص ٤٤١.

(١٨) ازهار، ٢ /ص ٣٧٦.

ولعلنا هنا أمام خرافة ليس من الصعب أن نجد لها مبررا. ففي القرن الرابع عشر للميلاد، قام نزاع بين متأخري بني العزفي وبين الفرع الصقلي من الشرفاء الحسينية الذين كانوا قد استقروا في سبتة وقُدر لهم أن ينتزعوا من بني العزفي سلطتهم وجاههم(١٩). وعلى ذلك، فلعل حكاية الأصول البربرية لبني العزفي تعكس محاولة من جانب الحسيخيين أو أنصارهم للتشكيك في نسب العزفيين العربي، في مدينة كان فيها مثل هذا النسب يحظى بكل احترام(٢٠). ومن ناحية أخرى، قد تكون ثمة تفسيرات أخرى، خصوصا وأن مجكسة كانت قبيلة بارزة من قبائل غمارة(٢١). ومهما يكن من أمر، فانه ليس ثمة من دليل على أن حكاية نسب العزفيين المزعوم الى مجكسة أخذ بمأخذ الجد، كما لا توجد أية اشارة الى أنه كان متداولا بين الناس الى أن خان العزفيين الحظ وفقدوا سلطانهم(٢٢).

تفيد كافة الروايات بان أبا العباس كان عالما فقيها شديد الورع تولى التدريس طيلة حياته في المسجد الجامع بمدينة سبتة. ومن الغريب لأول وهلة ان اسمه لم يلمع في صفحات تاريخ المغرب الأقصى، اذ أنه كان المحرك الأول لتطور مهم انطوى على نتائج اجتماعية ــ اقتصادية، وهو إدخال الاحتفال بعيد المولد النبوي الى المغرب، ويقع الاحتفال به في ١٢ ربيع الأول من كل عام(٢٤). فاذا كان اسم الفقيه الورع بهذا الخصوص قد تلاشى من ذاكرة الناس، فذلك أمر مفهوم، اذا تذكرنا بأن الاحتفال بالمولد النبوي لم ينل الترخيص الرسمي إلّا بعد أكثر من نصف قرن على وفاة أبي العباس. ويقرن ذلك في الدرجة الاولى باسم السلطان المريني أبي يعقوب يوسف الذي بارك الاحتفال في عام ٦٩١ هـ /١٢٩٢ م(٢٥). أضف الى

(١٩) انظر كتاب (التعريف) لابن خلدون، تحقيق الطنجي، القاهرة ١٩٥١، ص ٨١.

(٢٠) ان نظرة سريعة في الأنساب الواردة في كتاب (اختصار الأخبار) للأنصاري تؤكد ذلك.

(٢١) Cf. **EI²**, s.v. Ghumara; **EI**, s.v. Ceuta.

(٢٢) انتهى تاريخ بني العزفي كقوة في سبتة في حدود عام ١٣٢٨ م.

(٢٣) برنامج الرعيني، ص ٤٢.

(٢٤) ازهار، ١ /ص ٣٩، ٢٤٣. وعن المولد النبوي انظر A. Salmi, «La genre des poèmes de nativité dans le royaume de Grenade et au Maroc», in **Hespéris**, 43 (1956), pp. 346 ff.

A. Le Tourneau, **Fès avant le Protectorat**, Casablanca 1949, p. 594.

L. Brunot, **Au seuil de la vie marocaine**, Casablanca 1950, p. 77.

انظر كذلك أدناه، ص I/سطر ٥٨٧ ــ ٦٠٢.

(٢٥) Salmi, p. 347 ينظر في موضعه Le Tourneau.

ذلك أنه بعد أن أفل نجم العزفيين، سار السلطان المريني أبو عنان فارس (حكم ١٣٤٩ ــ ١٣٥٨ م) على سُنَّة تكريم الشريف الحسيني ــ واليه على سبتة الذي حلّ محل بني العزفي في السلطة ــ باستدعائه الى فاس لحضور الاحتفالات السنوية بالمولد النبوي(٢٦). ان شرعية ما استحدث دار حولها الجدل فيما بعد، إلّا أن الصوفي الشهير ابن عباد الرندي (١٢٣٢ ــ ١٣٩٠ م) لم يجد جوابا غير الثناء على بني العزفي لأنهم أحلوا محل الأعياد الوثنية كالنيروز والمهرجان عيدا مكن المسلمين من تذكير أنفسهم بخلال النبي وسجاياه(٢٧).

ينسب الى أبي العباس مصنفان أدبيان يعكس كلاهما ما كان يتحلى به من ورع وتقوى. يحمل المصنف الأول ــ وهو أقل ذيوعا ــ عنوان (دعامة اليقين في زعامة المتّقين)(٢٨). أما المصنف الثاني ــ وتوجد منه نسخة ناقصة في حالة رديئة في مدريد ــ ففيه يرمي المؤلف الى تحويل المسلمين عن طقوس النصارى والى تشجعيهم على تذكر الأعياد الاسلامية وبخاصة عيد المولد النبوي. ان طبيعة هذا التأليف الذي لم يكن قد اكتمل عند وفاة مؤلفه، فأكمله فيما بعد ابنه أبو القاسم، تنعكس بوضوح في عنوانه وهو (الدر المنظم في مولد النبي المعظّم)(٣٠). ولنا أن نتصور اثر الكتاب على ظهور وتطور شعر المولديات في مديح سيرة النبي وشمائله للانشاد في عيد المولد النبوي(٣١).

كانت وفاةُ أبي العباس كما تقدم في شهر مايو ١٢٣٦ م. اننا نعلم جيدا بانه خلف أبناء، إلّا أننا لا نسمع شيئا عن اخوة وأخوات وأقرباء آخرين له. ومهما يكن من أمر، فان أفراد الأسرة كانوا يحظون بمكانة بارزة في المدينة، وازدادت مكانة الأسرة وهيبتها في السنوات العشر أو نحو ذلك من وفاة أبي العباس، اذ نجد أنه قبل سقوط اشبيلية بوقت قصير كان بنو خلدون ــ وهم من كبار الأسر في المدينة

(٢٦) أزهار، ١ /ص ٣٩.

(٢٧) P. Nwyia, **Ibn Abbad de Ronda**, Beirut 1961, pp. 141 f.

(٢٨) Al-Badisi, **El-Maqsad** Traduction annotée de G.S. Colin, **Archives Marocaines,** 26 (1926), Paris, p. 217, n° 447.

(٢٩) انظر **Al-Andalus,** 27 (1962), p. 409 n°36.

(٣٠) أزهار، ٢ /ص ٥ ــ ٣٧٦ (اكثر المصادر تفصيلا). ولما كان الكتاب أكمله الابن، فان البعض ينسبه الى أبي العباس، وينسبه البعض الآخر الى أبي القاسم. انظر الأنصاري، ص ١٥٠.

(٣١) انظر في موضعه مقال Salmi المذكور في الحاشية ٢٤ أعلاه.

ـــ قد توقعوا حدوث الكارثة، فنزحوا الى سبتة حيث عقدوا مصاهرات مع أبناء وبنات «العزفي»(٣٢). ويمكننا أن نفترض ـــ مطمئنين ـــ بأن «العزفي» كان أبا القاسم محمد الذي سنتحدث عنه الآن(٣٣).

اتخذ أبو القاسم بعد ثلاث عشرة سنة من وفاة أبيه خطوة قدر لها أن تجعل منه مؤسس ما يمكن تسميته بأسرة حاكمة من الأمراء ـــ الولاة. ان ظهوره المفاجيء كما يبدو على المسرح السياسي في هذه الآونة تكمن خلفه مجموعة متشابكة من الأحداث والظروف، مما يوحي بالأسباب التي حدث به إلى اتخاذ الخطوة التي اتخذها، والتي ينبغي لذلك أن تبين بشيء من التفصيل.

ان النزعة الى الاستقلال التي تميز بها السبتيون حتى في أيام عظمة الموحدين فرضت نفسها ووجدت تعبيرا في قيامهم بثورات من حين الى آخر(٣٤). ان مثل هذه النزعة كثيرا ما تميزت بها في التاريخ الجماعات البحرية الأخرى المنظمة وذات الوضع الاستراتيجي، وهي الجماعات التي كانت تجني الرخاء وتشعر بالغيرة من مكاسب النشاطات التجارية. فلا غرابة اذن أن تكون تلك النزعة قد برزت بشكل ملحوظ عند ضعف الامبراطورية. إن أسبابا كثيرة توفرت لعدم الرضا. فقد شهدت الفترة من وفاة أبي العباس العزفي الى قيام ابنه أبي القاسم على وجه الخصوص موجة مدمرة حقيقية من المد القوي لحركة الاسترداد reconquista التي عجز حماة الاسلام من الحكام عن وضع حد لها. فبعد أسابيع قليلة من وفاة أبي العباس، سقطت قرطبة في يد فرديناند الثالث (١٢ شوال ٦٣٣ هـ/ ٣٠ يونيو ١٢٣٦ م). وفي عام ١٢٣٨ م سقطت بلنسبة في يد جيمس الأول ملك أرجون الذي استولى بعد ذلك على مرسية عام ١٢٤٣ م. ثم فقدت جيَّان وشاطبة عام ١٢٤٦ م، وبحلول نهاية العام كان شرق الأندلس كله قد سقط في أيدي النصارى. وبعد ذلك بسنتين فقط سقطت ثاني الحواضر الكبرى بالأندلس في يد

(٣٢) ابن خلدون : التعريف، ص ١١.

(٣٣) يذكر ابن خلدون الاسم «ابراهيم» (العبر، ٧ /ص ٢٢٨)، ويبدو أنه يخلط بينه وبين أخيه (العبر، ٦ /ص ٣٤٣). وليس من شك في صحة الاسم «محمد» فهو المذكور في كافة المصادر الاخرى (كأزهار الرياض مثلا، ٢ /ص ٣٧٤) كما أنه الاسم المذكور في توقيع خطاب له ورد في (الذخيرة السنية)، ص ١٠٢ وما بعدها.

(٣٤) انظر EI, s.v., Ceuta. البيان، ص ٢٨١. روض القرطاس، ص ١٢٤، ١٦٩.

فرديناند الثالث، حينما استسلمت اشبيلية (٢٣ نوفمبر ١٢٤٨ م)[٣٥]. وفي غرب الأندلس، كان ملك البرتغال الفونس الثالث يحرز تقدما سريعا، وقد نجح عام ١٢٤٩ م في انتزاع ميناء شنتمرية الغرب (فارو حاليا) من أيدي الموحدين.

ونظرا الى موقع سبتة الجغرافي والاستراتيجي الحيوي، فان الأحداث في الأندلس كان لها صدى أكبر في سبتة مما كان الحال في أي جزء آخر من بلاد المغرب. فالمرء يدرك اذن بأن الآثار المقلقة للانتصارات المسيحية الكبرى في الأندلس يمكن ملاحظتها بوضوح في تاريخ سبتة السياسي خلال الفترة ١٢٣٦ ــ ١٢٤٨ م. وكان أهل سبتة منذ عام ١٢٣٢ قد تمتعوا بالاستقلال برئاسة أبي العباس اليَنشتي (نسبة الى ينَشْتَه بإقليم قونكة). وهو أمير تاجر من بينهم وقع اختيارهم عليه، فلم يتردد في أن يتخذ لنفسه لقب الموفق[٣٦] إلّا أن الدولة ــ المدينة الثائرة أعلنت في صيف عام ١٢٣٨ م ولاءها للموحدين فحذت بذلك حذو اشبيلية التي كانت تربطها بها روابط وثيقة[٣٧]. ولا شك في أن سبتة فعلت ذلك كرد فعل للصدمة التي تلت كارثة قرطبة وللتقدم المتواصل لحركة الاسترداد. وبادر السلطان الموحدي الجديد الرشيد بتعيين رجل يوثق به من مدينة بلنسية، أبي علي ابن خلاص، فولاه جباية المكوس أولا ثم نصبه واليا على المدينة[٣٨]. وقد بقي هذا الرجل على ولائه ووفائه للموحدين حتى وفاة الخليفة، ولكنه بعد وفاة سيده في نهاية عام ١٢٤٢ م بقليل، سحب بيعته عن الخليفة الجديد السعيد (١٢٤٣)، وقام فيما بعد ــ ولعل ذلك كان في حدود عام ٦٤١ هـ / ٣ ــ ١٢٤٤ م ــ

(٣٥) Cagigas, II, p. 376. ويورد Brunschvig التاريخ الهجري، وهو رمضان ٦٤٦ /ديسمبر ١٣٤٨ (١ /ص ٣٣).

(٣٦) انظر الانصاري، الترجمة الفرنسية، ص ٤٢١ والحاشية ٧٨ والمراجع المذكورة فيها. ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار، ليدن ١٩٣٨، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠.

(٣٧) Cf. **QC**, p. 72, **HPIA**, p. 511 etc. ومما يذكر أن دانتي فيما بعد جعل «Sibilia» ترتبط ارتباطا وثيقا بـ «Setta» (**Inferno**, 26, pp. 110-111).

(٣٨) كتاب العبر، الترجمة الفرنسية، الجزء الثاني، ص ٣٣٣ (غير موجود في النص بطبعة بولاق). العبر، ٧ /١٨٦. البيان، ص ٣٤٣.

بمبايعة السلطان الحفصي أبي زكريا الذي ولّاه رسميا على المدينة(٣٩). ان الفترة القصيرة جدا من الهدوء السياسي الذي يبدو أن سبتة نعمت به في عهد ابن خلاص الشبه المستقل انتهت فجأة بوفاته عام ٦٤٦ هـ /نهاية ١٢٤٨ م، أو أوائل عام ١٢٤٩ م(٤٠). أما أسباب العاصفة التي أعقبت وفاة ابن خلاص فليس من العسير التعرف عليها. ان فقدان اشبيلية كان نذيرا ببداية تدني هيبة الموحدين. إن الكارثة التي حلت بإشبيلية لم تكن كارثة حلت بمكان ناءٍ. فسفن سبتة اشتبكت مع سفن العدو في الوادي الكبير حيث اشتبكت مع سفن قائد اسطول قشتالةRamon Bonifaz(٤١). كما احس أهل سبتة بحجم الكارثة بشكل ملموس، لا عن طريق النازحين الذين وصلوا الى سبتة من اشبيلية مباشرة(٤٢) فحسب، بل كذلك بوجود الرجل الممقوت شقّاف قائد الفحص(٤٣) الذي كان قد قام بدور رئيسي في استسلام اشبيلية، وهو الذي قام بالفعل بتسليم مفاتيح المدينة للملك فرديناند(٤٤). ومما زاد الطين بلة كذلك أن الوالي المتوفى ابن خلاص لم يخلفه في منصبه سبتي أو حتى أندلسي مقبول، بل حل محله حفصي هو ابن الشهيد

(٣٩) ان التاريخ الحقيقي يكتنفه شيء من الشك. فابن عذارى، (البيان، ص ٣٧٩) يورد السنة ٦٤٣ /٥ — ١٢٤٦، ويرى Dufourcq ان ذلك تم عام ١٢٤٦ أو ١٢٤٧ (QC, p. 107) انني أعتمد في التاريخ الذي أوردته على كون سبتة — وكثيرا ما كانت تحذو حذو اشبيلية — بايعت السلطان الحفصي — كما يبدو — محتذية حذو اشبيلية أيضا (Ibar, tr. ii, p. 323) وكما يقول Brunschvig (١ /ص ٣٣) فان اشبيلية بايعت السلطان الحفصي بعد الحملة التي جهزتها ضد تلمسان في نهاية شهر محرم ٦٤٠ /نهاية يوليه ١٢٤٢ وفرغ منها في صفر / يوليه — اغسطس ١٢٤٢ وفي عام ٦٤١ /٣ — ١٢٤٤ طلب أهل اشبيلية واليا من سلطانهم الجديد (Brunshviig, I, p. 33).

(٤٠) كتاب العبر، ٧ / ص ١٨٦. Cf. Brundschvig, I, p. 34.
ان السنة التي أوردها ابن عذارى ٦٤٣ /٥ — ١٢٤٦ (البيان، ص ٣٧٩) لا يمكن أن تكون صحيحة اذ إننا نعلم بان الشاعر الشهير ابراهيم بن سهل الذي فر من اشبيلية قبيل سقوطها أو غداة سقوطها (نهاية عام ١٢٤٨) استكتبه ابن خلاص وأوفده فيما بعد في مهمة الى السلطان أبي زكرياء (لا إلى المستنصر عام ٦٤٩ /١٢٥١ كما جاء في ترجمة ابن سهل في EI², s.v. Ibn Sahl).

(٤١) Cf. QC, p. 108, § n° 7.

(٤٢) QC, p. 108, § n 6.

(٤٣) البيان، ص ٤٠٠. كان الفحص [فحص القصر] تابعا لاشبيلية (انظر الروض المعطار، ص ٥٨) لا — كما حَسِبَ هويثي — سهلَ سبتة (HPIA, p, 547, Cf. Bayan tr II, p. 215).

(٤٤) لا «شفاف» كما ورد في كتاب (العبر) وحول البلبلة في رسم الاسم انظر Cagigas, II, p. 413, n 69

[الهنتاتي](٤٥)، وهو ابن عم السلطان أبي زكريا. ويمكننا الافتراض بان ابن الشهيد هذا إن هو ذكر فانما يذكر كقائد بحري فاشل، اذ كان قبل نحو عشر سنوات خلت قد قاد مجموعة من سفن افريقية الحربية لنجدة بلنسية، فمُني بهزيمة على أيدي القطلانيين(٤٦). وإتماما للصورة البائسة، فإن الادارة الحفصية بسبتة أصبحت لا تحتمل بسبب أعمال الجباية ــ الحقيقية أو المتخيلة ــ من طرف المتولي لمكوسها ابن أبي خالد من اشبيلية(٤٧). تلك كانت الأوضاع السائدة عشية الثورة التي انتهت باستيلاء ابي القاسم العزفي على مقاليد الحكم.

توفي السلطان الحفصيُّ أبو زكرياء في ٢٥ جمادى الثانية ٦٤٧ هـ / ٥ أكتوبر ١٢٤٩، وكما يذكر Dufourcq والمصادر التي اعتمدها، فإن العاصفة هبت فور وصول نبأ وفاة السلطان الحفصي الى سبتة في ٢٩ رجب ٦٤٧ / ٧ نوفمبر ١٢٤٩ (٤٨). إلّا أن من الجدير بالذكر أن بعض المصادر العربية التي لم يستعملها الباحث الفرنسي تورد تاريخا مغايرا، وهو ٢٧ رمضان ٦٤٧/ ٣ ينار ١٢٥٠(٤٩)، وانني شخصيا أميل الى قبول هذا التاريخ، لأنه أولا التاريخ الوارد في أكثر الروايات تفصيلا عن الحادث، وثانيا لأن شهر رمضان ــ كما سنرى ــ كان الشهر الأنسب لوضع خطة العمل موضع التنفيذ. ومهما كان التاريخ، يبدو أنه مما لا شك فيه أن وفاة أبي زكرياء كانت في الواقع بمثابة اشارة للعمل. فقد كانت الأحوال مهيأة للثورة. فابن أبي خالد كان ممقوتا من قِبَل الجميع، وكان شقاف شخصا غير مرغوب فيه، وابن الشهيد كان عاجزا لا وزن له. والأهم من ذلك كله أن قائد البحر آنذاك أبا العباس حجبون الرنداحي(٥٠) لم يكن راضيا عن

(٤٥) **Ibar**, II, pp. 323 f. انظر (البيان)، ص ٣٧٩. ان المعلومات التي أوردها هويثي في ترجمة ابن الشهيد معلومات مضللة. وبالخصوص فان ابن الشهيد لم يكن «almirante» بسبتة. (**HPIA**, p. 547).

(٤٦) Cf. **QC**, p. 109. Brunschivg, I, pp. 32, 34.

(٤٧) البيان، ص ٤٠٠ [يرد الاسم على أنه ابن أبي خالد البلنسي في (البيان المغرب)، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني وزملائه، ط بيروت ــ الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٣٧٨]. يرد اسمه وكنيته ومنصبه في **Ibar**, tr, II. p. 324. ويدعى أبا عثمان بن خالد (أزهار، ٢ /ص ٣٧٤) (انظر الذخيرة، ص ٧٦) ويوصف بوالي سبتة. وترد كنيته على أنها أبو عمر في **HPIA**, p. 547.

(٤٨) **QC**, p. 109.

(٤٩) البيان، ص ٤٠٠. الذخيرة (ط الرباط ١٩٧٢)، ص ٧٦.

(٥٠) يرد الاسم عند ابن خلدون العبر ٧ /ص ١٧٦ («حجفون» غير صحيحة)، والترجمة الفرنسية ٤ /ص ٦٤) («رندادي» غير صحيح). وترد الكنية عند ابن عذارى (البيان، ص ٤٣١).

بعض الأمور المتعلقة بالسياسة(٥١). وكان قائد البحر الرنداحي قد أبلى بلاء حسنا في معركة بحرية عند قادس في العام ذاته، وهو عام ٦٤٧ هـ(٥٢)مما يوحي بأنه كان قائدا قديرا شهما. وفي هذا الجو من التوتر والسخط، ألح الرنداحي على العزفي بمشاركته لقلب نظام الحكم القائم في سبتة (٥٣). وكانت الشروط جذابة : فقائد البحر يتولى تنظيم الثورة وتقديم المساعدة الضرورية لتنفيذها، وبعد ذلك يتولى أبو القاسم زمام السلطة في سبتة(٥٤). ان فرصة النجاح كانت متوفرة للخطة، اذ إن أبا القاسم — كما يقول ابن خلدون — كان آنذاك كبير وجوه المدينة، وكان يحظى باحترام كبير وذلك — على الأقل — لأنه كان وثيق الصلة بوالده الجليل، وسار على خطاه(٥٥). فوافق أبو القاسم آخر الأمر وحدّد تاريخا للعمل(٥٦). وعند حلول الظلام في اليوم المتفق عليه (وهو وقت مناسب اذا قبلنا أن ذلك كان في شهر رمضان) دُعي عدد لا بأس به من العاملين في قوات سبتة المسلحة الى وليمة في منزل القائد. ولما حضر الضيوف وانشغلوا في داخل الدار(٥٧)، كشف الرنداحي عن نواياه لأتباعه، وأرسلهم في جنح الظلام لاحضار رؤوس شقاف وآخرين غيره سماهم. ولا يحدثنا المؤرخون عن السبب الذي من أجله كان شقّاف على رأس الضحايا، ولكننا نعلم بأنه كان على رأس عدد لا يُستهان به من الجنود والضباط الأندلسيين اصطحبهم معه في منفاه. اضف الى ذلك أنه — كابن أبي خالد — اشبيلي، وقد قامت — كما يبدو — رابطة صداقة بينهما(٥٨). وعلى أية حال، فما إن فرغ الجناة من مهمتهم وأحاطوا سيدهم علما بذلك، حتى اجتمع الرنداحي بأبي القاسم وأطلعه على ما قام به، ثم عاد الى داره تاركا أبا القاسم في حالة من الفزع لنتائج ما حدث. وفي الدار، استدعى الرنداحي ضيوفه للالتحاق به، ثم

(٥١) البيان، ص ٤٠٠.

(٥٢) مؤلف مجهول الاسم : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط ١٩٧٢، ص ٧٦.

(٥٣) البيان، ص ٤٠٠، العبر، ينظر في موضعه.

(٥٤) ان هذه الشروط لم يعبر عنها صراحة، وانما هي مفهومة ضمنا.

(٥٥) العبر، ينظر في موضعه.

(٥٦) ما لم يُشَرْ الى غير ذلك، فان المصدر لكل ما يرد الى نهاية الفقرة هو كتاب (البيان المغرب)، ص ٤٠٠ — ٤٠١.

(٥٧) تفيد ترجمة هويثي أن المتآمرين كانوا يتناولون الشراب (**Bayan**, tr. II, p. 216) إلّا أن كلمة «شَطْح» (البيان، ص ٤٠٠) يُرجَّح أنها تعني بالاصطلاح المغربي «الرقص». (Dozy, **Supplément**, s.v.).

(٥٨) **Ibar**, tr. II. p. 324

توجه الى القصبة بعد أن أمر بضرب النفير لاستدعاء رجال سفنه للعودة الى سفنهم. ولما ذاع الخبر في البلد، اجتمع الأهالي حول راية القائد، مطالبين برأس ابن أبي خالد. ثم صعدوا على سور القصبة، وظفروا بابن أبي خالد، فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوه على السور. اما ابنُ الشهيد فكان أحسن حظا، فنجا من الموت، ونُفي الى الأندلس في زورق الى أن وصل بعد ذلك بشهور الى تونس.

وقد أعقب إلغاء بيعة سبتة للحفصيين اعلان بيعتها للخليفة المرتضى الموحدي (حَكَم ١٢٤٨ ـــ ١٢٦٦ م)(٥٩).

أوجز Dufourcq مجرى الأحداث في أعقاب ثورة سبتة(٦٠). والانطباع الذي يخرج به المرء من روايته هو أن العلاقات بين أبي القاسم والسلطان الموحدي انتهت بان أعلن العزفي مبايعته لهذا السلطان، وأن أبا القاسم أصبح بعد ذلك السيد الوحيد لسبتة بعد أن تخلص من أسرة الرنداحي. ثم يذكر Dufourcq أن سبتة حظيتْ باستقلال فعلي حتى عام ١٢٥٨، حينما رأت أن من الحكمة مبايعة المرينيين بناء على مشورة أميرها العزفي. فبايعت السلطان، أبا يوسف يعقوب (حكَم ١٢٥٨ ـــ ١٢٨٦ م)، ووافقت على أداء خراج له. إلّا أن هذه الرواية لما حدث ـــ وهي رواية مبنية فيما يبدو على رواية ضغط فيها ابن خلدون الحقائق(٦١)، وعلى تفسير خاطىء بالمرة للمعلومات من جانب ابن أبي زرع(٦٢) ـــ في حاجة الى إعادة النظر فيها.

فأولا يفهم من رواية ابن خلدون ـــ وبخاصة في ترجمة De Slane ـــ أنه فور تلقي المرتضى الأنباء الطيبة عن عودة سبتة الى أحضان الموحدين عقد لأبي القاسم العزفي على سبتة مستقلا من غير إشراف أحد من السادة ولا من الموحدين. وفي الوقت ذاته، عقد للرنداحي على قيادة الأساطيل بالمغرب. إلّا أن مثل هذا الانطباع ينبغي ـــ كما يبدو ـــ أن يعدل في ضوء ما يقوله ابن عذاري عن الموضوع(٦٣). يقول ابن عذارى أن أبا القاسم بدأ ولايته بان طلب من

(٥٩) العبر، ٧ /ص ١٨٦. انظر كذلك ٦ /ص ٢٨٠.
(٦٠) QC, PP. 109 ff.
(٦١) العبر، ٧ / ص ١٨٦.
(٦٢) روض القرطاس، ص ١٩٩.
(٦٣) البيان، ص ٤١٤. [«ابن اشرقي» في (البيان)، بيروت ـــ الدار البيضاء ١٩٨٥، ص ٤٠٩)].

الخليفة «ان يبعث له شخصا من الموحدين أو سيدا من السادة، فبعث اليه ابن أشرفي، فأخرجه بعد أشهر، وكتب للمرتضى بما كان من أفعاله وأعماله، فصدق المرتضى في كل ذلك مقاله، وبقي الفقيه مستبدا بأحواله». ولا يذكر شيء عن الترتيب الذي اتخذ بعد ذلك. وكل ما نعلمه أنه في عام ٦٥٤ / ينار ١٢٥٦ — يناير ١٢٥٧، استبد أبو القاسم ببلده، وضبطها لنفسه باشتداده وجده في مصالح أهلها بغاية الجد واجتهاده.. لكن كان يخاطب المرتضى في كل الأوقات، ويخطط مما يجب له من التخطيطات والبر والكرامات، ويعرفه بجميع الأمور والمتزايدات». يبدو من ذلك أنه مع أن أبا القاسم أصبح حاكما مستقلا استقلالا ذاتيا — بمعنى أنه لم يتلقَّ الأوامر من مراكش ولم يؤد الخراج لها — إلّا أنه مع ذلك ظل وفيا للسلطان الموحدي ورعى مصالحه عند الحاجة(٦٤). إن افتراضا من هذا القبيل يعززه جانب من كتاب أورده صاحب (البيان المغرب) — كان المرتضى قد وجهه لأبي القاسم العزفي حين كائنة سلا وهو مؤرخ في ٣ ذي العقدة ٦٥٨ / ١٠ أكتوبر ١٢٦٠، وفيه يعبر المرتضى عن شكره للعزفي لما أسداه من خدمات مخلصة في الماضي والحاضر(٦٥).

أما فيما يختص بموضوع الرنداحي، فاننا لا نجد أن أبا العباس حجبون الرنداحي كان ما يزال قائدا لأسطول سبتة عام ٦٥٩ / ١٢٦٠(٦٦) فحسب — وأهم من ذلك اذ أن أبناءه هم الذين يقال أنه تم إبعادهم عن المسرح — بل نقرأ كذلك بأن أحد أفراد الأسرة، واسمه أبو القاسم الرنداحي، كان على رأس حملة ضد طنجة عام ٦٦٥ /٦ — ١٢٦٧ قائدا في خدمة العزفي(٦٧). لذلك، فإننا لا نستطيع التسليم بأن سيد سبتة الجديد بادر بإبعاد أسرة الرنداحي غداة الثورة. وأخيرا، فانه ليس ثمة ما يوحي بأن العزفي كان متلهفا بأي شكل لخدمة الأسرة الحاكمة الجديدة، بل على العكس من ذلك — كما سنرى بعد قليل — فإن

(٦٤) ان هزيمة الخليفة في الموضع المعروف ببني بهلول (جمادى الثانية ٦٥٣ /يوليه ١٢٥٥) لا بد وانها اثبتت للعزفي المدى الحقيقي لعجز السلطان، اذ إنه هو الذي قام فيما بعد بالوساطة بين الموحدي وخصمه المنتصر ابي يحيى المريني لتسوية أمور خاصة تهم المرتضى مباشرة (البيان، ص ٤١٣).

(٦٥) البيان، ص ٥ — ٤٢٦.

(٦٦) المصدر السابق، ص ٤٣١.

(٦٧) المصدر السابق، ص ٤٤٠. في سنة ٦٥٣ /٥ — ١٢٥٦ «قتل القائد محمد الرنداحي بوادي اشبيلية» — الذخيرة (طبعة الرباط، ١٩٧٢)، ص ٨١.

خضوعه كتابع يؤدي الخراج للمرينيين لم يحدث إلّا بعد انقضاء نحو ربع قرن من ثورته.

والنقطة الاخيرة التي يمكن أن نضلل فيها اذا نحن اعتمدنا على ابن خلدون — دون سواه — هي مسألة طنجة(٦٨). فباختصار يخبرنا ابن خلدون أن رد فعل طنجة لانقلاب عام ١٢٥٠ كان احتذاءها حذو جارتها سبتة في سائر الأحوال. «فاتبع صاحبها ابن الأمين إمارة الفقيه أبي القاسم، ثم انتقض عليه لسنة، واستبد، وخطب لابن أبي حفص، ثم للعباسي، ثم لنفسه». وهكذا فإنه أصبح حاكما مستقلا كالعزفي. أما رواية ابن عذارى فانها أكثر تفصيلا وتزودنا بتفاصيل توضح طبيعة علاقة طنجة بسبتة وهي — كما سنرى — مناسبة وثيقة الصلة لتقييمنا للمسلك الذي انتهجه أبو القاسم فيما بعد في معاملاته مع المدينة(٧٠). إن أهل طنجة — فيما يبدو — لم يخضعوا للعزفي عقب الثورة مباشرة، بل كان خضوعهم له في تاريخ تال حينما اتضح لهم تماما بأن قوة المرينيين في الجهة كانت في ازدياد، في حين أن قوة المرتضى كان قد تضاءلت بحيث لم يعد في مقدوره أن يكفل لهم أية مساعدة عسكرية. وعندئذ، دخلوا تحت طاعة أبي القاسم، فبعث لهم قوة كبيرة من الجند والرماة على رأسها القائد أبو الفضل العباس. وكان فيمن توجه في صحبته أبو الحجاج يوسف بن الأمين(٧١). وبعد أن استقر القائد في القصبة، رأى من الضروري ان يباشر بعض الأعمال خارج طنجة، فترك ابن الأمين نائبا فيها عنه أثناء غيابه. وقد تأخرت عودته الى طنجة لأمور منها قيامه بجولة لجباية الخراج من قبائل غمارة، واجتماعه بأبي القاسم في سبتة، والنظر في أمور أخرى. فلما طالت غيبته، استأنس أهل طنجة بابن الأمين وأحبوه. وبناء على ذلك، ولثقته بالولاء المطلق لقسم كبير من الجند كانوا تحت إمرته في سبتة، تشجع نائب القائد فدبر معهم أن يقوم بطنجة، وان يحررهم من التبعية للعزفي. وقد تكللت الخطة بالنجاح، واستبد ابن الأمين في طنجة، وضبطها لنفسه (٦٥٤ /٦ — ١٢٥٧).

(٦٨) العبر، ٧ /ص ١٨٦
(٦٩) لا تتفق المصادر على الاسم : أهو «ابن الأمير»، أم «ابن الأمين»؟ ويكاد يكون من المؤكد أن الأخير هو الصحيح
(٧٠) انظر (البيان)، ص ٤١٤
(٧١) أو «يوسف بن محمد بن الأمين».

ان الباحث لا يجد ما ينشده من وفرة في المعلومات المفصلة عن سيرة أبي القاسم العزفي و«حكمه». وعلى ذلك، فسوف نكتفي بالحد الأدنى من المعلومات الصريحة المنتقاة من هنا وهناك، ثم نقوم بتفسير كل ما يمكن عن الرجل في ضوء الظروف التي كان يعمل فيها.

ورد ذكر تاريخ مولده على أنه سنة ٦٠٦ هـ / ٩ ــ ١٢١٠، أو منتصف شهر شوال عام ٦٠٧ هـ / نهاية مارس ١٢١١، أو ٦٠٩ هـ / ٢ ــ ١٢١٣(٧٢). ومهما كان التاريخ الصحيح لمولده، فإنه كان يناهز الأربعين عند قيامه بالثورة. وحيث إننا لا نسمع شيئا مثيرا حقا عنه لقرابة خمس عشرة سنة، وحيث إن ردَّ فعله المباشر للخبر الذي وافاه به حجبون عن الاغتيالات كان ينمُّ عن فزع ملحوظ(٧٣) فلنا أن نستخلص أنه مع تقدم سنه ازداد حصافة وتمييزا مما جعله يُحجم عن التسرع فيما يقوم به. ومن الواضح أن همَّه الأول كان توطيد مركزه. وكان لديه من الأسباب بعد سقوط اشبيلية ما يجعله يركز أولا على تعزيز وسائل الدفاع عن سبتة، وثانيا، على اتخاذ ما يكفل سد حاجات الزيادة في سكان المدينة نتيجة لتدفق النازحين الأندلسيين عليها. ويخيل اليَّ بان علينا أن نفسرِّ في ضوء مثل هذه الاحتياجات ما ذكر عن الأعمال التي قام بها في أسوار سبتة، وتشييد جانب المنارة عام ٦٤٩ /١ ــ ١٢٥٢(٧٤)، وإنشاء ربض جديد في أسفل جبل الميناء عام ٦٥٣ /٥ــ١٢٥٦(٧٥).

ولما توطد مركز العزفي، لم يكن لديه ما يخشاه من داخل المغرب الأقصى. فبحكم موقع سبتة على برزخ ضيق من شبه جزيرة، ولكونها محمية من ناحية البر بتحصينات منيعة(٧٦)، كانت المدينة نائية، وكان بإمكانها أن تعزل نفسها بالفعل ــ إذا شاءت ــ عن بقية البلاد. وبفضل بعدها، كان من المرجح أن تنجو سبتة من الآثار المدمرة للحرب الأهلية. كانت فاس قد سقطت في عام ١٢٤٨، إلّا أن

(٧٢) الذخيرة، ص ٤١. أزهار، ٢ /ص ٣٧٤.
(٧٣) البيان، ص ٤٠١.
(٧٤) الذخيرة، ص ٨٧.
(٧٥) المصدر السابق، ص ٨٩.
(٧٦) انظر أدناه، ص II/سطر ١٢٢ ــ ١٢٤.

المرينيين كانوا يواجهون متاعب في الجنوب، وكان عليهم أيضا الاستيلاء على العاصمة الموحدية مراكش التي صمدت في الواقع الى عام ١٢٦٩. وفي الشرق، كان بنو عبد الواد (بنو زيان) في تلمسان شوكة في جنب المرينيين. وعلى ذلك، فإنه يمكننا أن نفترض بأن صاحب سبتة في السنوات الاولى من حكمه كان يشعر بالاطمئنان من خطر عدوان حكومة مركزية. ولما كان أهل سبتة جماعة تجارية في المقام الأول، فإنه يمكننا الاطمئنان بأن الهدف الأول لسياسة أبي القاسم كان تثبيث وحفظ وتنمية التجارة الواسعة عبر البحر المتوسط، وهي التجارة التي كانت قد جعلت من سبتة المركز التجاري الكبير لغرب البحر المتوسط، وثمة بعض الحقائق التي من شأنها أن تؤكد هذا الافتراض. ففي شهر يونيو عام ١٢٥٠ م، اتخذ جيمس الأول ملك أرجون قرارا كان يقصد به في المقام الأول تخفيف حدة التوتر مع الحفصيين في افريقية، إلّا أنه كان قرارا ينطوي على آثار واضحة بالنسبة لمدينة سبتة : فقد تخلّى عن سياسته السابقة القائمة على مهاجمة سفن المسلمين، ومنع رسميا أعمال القرصنة المنظمة من جانب سفنه(٧٨). وليس ثمة من شك في أن أبا القاسم كان في الحقيقة يؤثر المردود الأكثر ضمانا من السلم، على فرص القرصنة والحرب، ويغتنم الفرص المتاحة للتجارة. وفي حدود عام ١٢٥٢ م، كان التجار القطلان يتاجرون بكل حرية في الميناء المغربي(٧٩)، وبعد ذلك بعشر سنوات، كانت سفن برشلونة تتردد على ميناء سبتة في مهمات تجارية سلمية(٨٠). كما أن الوثائق التي يعود تاريخها الى عام ١٢٥٣ م تؤكد بأن العلاقات التجارية بين سبتة وجنوة تواصلت على أساس منتظم(٨١). وأخيرا، نجد أن مرسيليا قامت في عام ١٢٥٥ م بتعيين قنصل لها في سبتة، له السلطة على فندقها بالمدينة، على أساس ترتيب قانوني ينص على حقوق وامتيازات دبلوماسية معينة(٨٢).

(٧٧) Cf. **QC**, pp. 69 ff. **ECM**, pp. 158, 161 f.

(٧٨) **ECM**, p. 162

(٧٩) المرجع السابق والصفحة

(٨٠) المرجع السابق والصفحة.

(٨١) **QC**, p. 110.

(٨٢) J. Caillé, «Les Marsellais à Ceuta au XIII^e siècle, in **Mélanges... de l'Occident musulman, Hommage à Georges Marçais**, II, Algiers 1957, pp. 25 f.

ومع أنه لا تتوفر لدينا معلومات أكيدة عن حجم تجارة سبتة وكثافتها خلال السنوات الأولى والأخيرة من حكم أبي القاسم العزفي، فإن لدينا دلالة واحدة على الأقل على مدى نشاطه التجاري : فهو الذي بنى الفندق الكبير(٨٣). ويستدل من الوصف الذي وصلنا عنه بأنه كان مبنى ضخما يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا تسع الآلاف العديدة من قفزان القمح. وتوحي التفاصيل الاضافية الواردة في الوصف بأن القمح كانت تنقله قوافل الجمال من مختلف أنحاء المغرب الأقصى(٨٤). ولما كنا نعلم أن برشلونة اعتادت أن تشتري القمح من المغرب الأقصى(٨٥)، أمكننا أن نفترض ــ واثقين ــ بان الفندق الكبير كان مركزا لسوق تصدير الحبوب.

أما في المجال السياسي، فإنه لا شك في أن شبه جزيرة ايبرية كانت تحتل في مشاغل العزفي مكانا أبرز مما كان يشغله المغرب الأقصى. فأولا، كان الفونس العاشر تواقا لمواصلة سياسة بدأها والده فرديناند الثالث بعد سقوط اشبيلية ترمي الى ضرب الاسلام في عقر داره فيما وراء بحر الزقاق، وكان يعتبر ذلك التراب ملكا له(٨٦). ومما جعل فرص «حملته الصليبية عبر البحر» أكثر اجتذابا أن المغرب الأقصى كان في خضم حرب أهلية. كانت موانىء المغرب أهدافه الطبيعية، وفي مقدمتها سبتة وأصيلا(٨٧). وكانت سبتة أكثر أهمية لتحكمها في مدخل البحر المتوسط ــ وهو أمر له أهميته بالنسبة لقشتالة ــ وكانت كذلك ــ كما أثبتت الأحداث ــ القاعدة التي يمكن منها للمغاربة أن يرسلوا بشكل فعال الجنود لتعزيز المقاومة في الأندلس ضد المسيحية التي نشطت عسكريا(٨٨). وهذا يفسر ما قام به رئيس اساقفة طليطلة في حدود عام ١٢٦٠ م باستحداثه منصب أسقف سبتة امتثالا منه لرغبات البابا وملك قشتالة(٨٩). إلّا أن سبتة لم تكن بالهدف الهين.

(٨٣) الأنصاري، ص ١٦٠.

(٨٤) المصدر السابق والصفحة.

(٨٥) **ECM**, p. 166, n 1

(٨٦) Cf. **QC**, pp. 74 ff.

(٨٧) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٨٨) Cf. J.A. Robson, «The Cataln Fleet and Moorish. Sea-power (1337-1344)», in **English Historical Review**, 74 (1959), p. 388.

(٨٩) **QC**, p. 77

فبحكم موقع المدينة الاستراتيجي كانت تتوفر لها السفن والخبرة، كما كان لقوتها البحرية تقاليد راسخة وتاريخ حافل طويل. وكانت سبتة كذلك في وضع ـــ بفضل القوة الاقتصادية التي حرص العزفي على رعايتها ـــ يمكنها من الاستعانة بحلفاء عند الحاجة. ففي عام ١٢٣٤ م، أمكن لسبتة درءُ تهديد كبير بفضل السفن التي استأجرتها من جنوة(٩٠). ويذكر بأن العون من المصدر ذاته توفر ضد الفونس العاشر(٩١). وعلى أية حال، فلا شك في أن طموحات ملك قشتالة كان يقابلها تيقظ من جانب أبي القاسم. ففي شهر سبتمبر من عام ١٢٦٠ م شنَّ الفونس هجوما على سلا. ان من الغريب ان تكون الحملة قد وصلت الى سلا أساسا، اذ بالرغم من الاحتياطات لإخفاء المكان الذي كانت ستقصده السفن القشتالية المتجمعة في الوادي الكبير، كان العزفي المتيقظ قد علم مسبقا بنوايا الفونس، فأخطر كافة الموانىء المغربية بذلك(٩٢).

ان قوة سبتة العزفية لم تلبث أن وضعت موضع الاختبار، لا من قِبل قشتالة بل من قِبل ابن الأحمر صاحب غرناطة الذي كان يطمع في الاستيلاء على سبتة لعدد من الأسباب، لعل من أهمها الأسباب الاستراتيجية والاقتصادية. ولا تذكر مصادرنا ما اذا كان سلطان غرناطة قد طلب من العزفي رسميا إعلان البيعة له فخاب في مسعاه. كما اننا لا نعلم ما اذا كان السبب أو النتيجة لتردي العلاقات بين أبي القاسم وبين ابن الأحمر اقتراحا قيل إن الملك النصري تقدم به الى الفونس، في تاريخ غير محدد بالضبط في حدود عام ١٢٦٠ م، للقيام بحملة مشتركة ضد سبتة(٩٤). ان المعلومات المتوفرة لدينا ـــ وهي كل ما نحتاج لمعرفته في

(٩٠) المرجع السابق، ص ٩٨ ـــ ٩٩ .ECM, pp. 161 f.

(٩١) ECM, p. 162 n° 1.

(٩٢) البيان، ص ٤٢٣.

(٩٣) يرى Dufourcq ان الملك النصري قد يكون اعتبر نفسه الوارث الطبيعي لابن هود صاحب مرسية وكانت تتبعه سبتة (QC, p. 114).

(٩٤) يؤرخ Dufourcq هذا الاقتراح في حدود عام ١٢٦٠ أو ١٢٦٢ (QC, p. 76 n4, cf, 113) وفي رأيي أن عام ١٢٦٢ غير محتمل، وأرى أن عام ١٢٥٩ ـــ ١٢٦٠ قد يكون أقرب الى الصواب لما يلي : (أ) قام السلطان النصري في الواقع بمهاجمة سبتة بمفرده عام ١٢٦١، (ب) بحلول عام ١٢٦٠ كان الفونس قد عيَّن اسقفا لسبتة، ولعله فعل ذلك استعدادا لنجاح كان يأمل في تحقيقه في المستقبل القريب، (ج) قام ملك قشتالة في الواقع بشن هجوم على سلا في سبتمبر ١٣٦٠، ولعله فكر في أن يثنّي بسبتة. واذا كان لم يهاجم سبتة فلأنه كان عليه المجازفة بسفنه عُبر بحر الزقاق وبمهاجمة اسطول سبتة القوي.

هذا المقام ــ هي أن العاصفة هبت في عام ٦٥٩ هـ /١٢٦١ م(٩٥) وانتهت على النحو التالي(٩٦). جهز ابن الأحمر اسطوله في الجزيرة الخضراء بقيادة قائد البحر ظافر(٩٧) ثم شن هجوما كبيرا على سبتة كان كارثة بالنسبة لغرناطة، اذ أن العزفي حشد كل السفن المتوفرة لديه تحت قيادة أبي العباس الرنداحي الذي حطم الحصار واستولى على كثير من سفن العدو، وقتل قائدها ظافرا. ان اسطول أبي القاسم أثبت كفاءته عند المحكّ. ولعل الفونس كان حكيما في عدم مجازفته بسفنه في وقت كان فيه ميزان القوة البحرية في صالح سبتة.

ان الانتصار الباهر الذي أحرزه العزفي على سلطان غرناطة النصري لا بد وأنه عمل على تعزيز مكانة العزفي في الداخل والخارج. ومع ازدياد حدة الصراع الاسلامي ــ المسيحي في اسبانيا، كان من الصعب على العزفي البقاء بمنأى عن الصراع حتى ولو لم يكن الحامي المخلص ــ ولو أنه حذر ــ للاسلام كما دللت على ذلك كافة أحداث سيرته. فليس من الغريب لذلك أن نقرأ عن تعاونه مع المرينيين في تجهيز ما ذُكر بأنه أولى الحملات التي جهزتها الأُسرة المرينية (٦٦٢ هـ/نوفمبر ١٢٦٣ ــ أكتوبر ١٢٦٤)(٩٨). ان صاحب (الذخيرة السنية) في روايته عن الحملة يصور العزفي على أنه لم يعد أن يكون وكيلا لأبي يوسف لنقل الجنود في السفن، وكان عددهم حسب روايته يزيد على ثلاثة آلاف بين فارس وراجل، بينما تذكر المصادر الأخرى رقما متواضعا هو ثلاثمائة(٩٩). إلّا أنه يبدو من المستبعد أن يكون السبتيُّ الحذر ــ في هذه المرحلة من سيرته ــ قد جازف بالسماح لمثل هذا العدد من الجنود المرينيين بأن يكونوا في سبتة، بل إننا حتى نتساءل عما اذا لم يكن هو في الواقع الذي بدأ العملية. ان اسم العزفي يبرز

(٩٥) أرى أن السنة هي ١٢٦١، لأن السنة الهجرية ٦٥٩ بدأت في ٦ ديسمبر ١٢٦٠، وفي العادة لا تكون الاحوال الجوية ملائمة في شهر ديسمبر.

(٩٦) البيان، ص ٤٢٥، يفترض Dufourcq ــ لخطأ واضح في تفسير النص العربي ــ بان الهجوم وقع عام ٦٦٢ /١٢٦٤ (QC. pp. 113 f). إلّا أن (البيان المغرب) يتناول الحادث تحت سنة ٦٥٩ هـ. ويرجع الخطأ في التفسير الى أن سنة ٦٦٢ هـ يرد ذكرها عرضا في نهاية العبارة التي تسبق مباشرة رواية هذا الحادث.

(٩٧) لا «Tafer» كما ورد في QC, p. 113.

(٩٨) كان يقود الحملة أبو عبد الله محمد بن ادريس بن عبد الحق.

(٩٩) الذخيرة، ص ٩٨. البيان، ص ٤٣١. روض القرطاس، ص ٢٠٢ (يذكر عام ٦٦١ تاريخا للحملة). انظر الاستقصا، ص ٢٣ (روايته مضطربة).

في شهر محرم ٦٦٣ /أكتوبر ــ نوفمبر ١٢٦٤ مستنفرا قبائل المغرب وصلحاءهم الى الجهاد في الأندلس(١٠٠). ومن المؤكد أن همَّه الأول كان مساعدة أهل مُرسية في ثورتهم على سيدهم المسيحي الفونس، وهو العدو اللدود لسبتة. وكانت الحاجة ملحة للعون العسكري الفعال، خصوصا وأن الفونس لم يكن وحده في الميدان، اذ إن جيمس الأول صاحب أرجون كان منذ شهر يناير ١٢٦٤ قد ردَّ على خطر المسلمين باعتبار نفسه في حرب مع كافة المسلمين(١٠١)، فتقدم بالجند والسفن الى جانب قشتالة ضد أهل مرسية وحلفائهم(١٠٢). وحيث إن أبا يوسف لم يكن بعدُ سيِّد مراكش، وكان لذلك مشغولا في الجنوب، فإن أبا القاسم العزفي كان في الواقع القوة الوحيدة القادرة على مناصرة المسلمين في اسبانيا وشمال المغرب الأقصى. فلا عجب والحالة هذه أن يكون المؤرخ Zurita قد حسب بأن «Abenca» (أبا القاسم) الذي كان يقدم المساعدة لأهل مُرسية هو سلطان المغرب الأقصى(١٠٣).

ثم لم يلبث أن وجد أبو القاسم نفسه ــ لسبب سليم أو لآخر ــ مضطرا لصرف اهتمامه الى ساحل المغرب الى الغرب من سبتة، بما في ذلك ساحل المحيط الأطلنطي. كانت أولى عملياته الكبرى في هذا القطاع في عام ٦٦٣ /٢٤ أكتوبر ١٢٦٤ ــ ١٣ أكتوبر ١٢٦٥ حينما بعث رجالا وسفنا الى أصيلا لهدم أسوارها وتخريب وهدم قصبتها للحيلولة دون أية محاولة لاحتلالها(١٠٤). وكان المكان ــ كما ذكر ــ خاليا من الناس عند وصول الحملة، ويفهم من ذلك ضمنا(١٠٥) أو يفترض(١٠٦) بأن ما دعا أبا القاسم للقيام بما قام به هو الخوف من امتناع حامية قشتالية في القصبة. ومن المؤكد أن أصيلا كانت أحد أهداف الفونس المعلن عنها، ولذلك فإن صاحب سبتة كان لديه ما يبرر مخاوفه، اذ إن قشتالة لم تكن تتوقع وصول سفن حربية من جنوة فحسب، بل كانت أيضا تتوقع الحصول على

(١٠٠) الذخيرة، ص ١٠٢، (نص الخطاب، ص ١٠٢ وما بعدها).
(١٠١) **ECM**, p. 162, n° 9.
(١٠٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.
(١٠٣) المرجع السابق، الحاشية ١. يخطىء Dufourcq في ظنه بان «Abenca» تحريف لِـ «العزفي»).
(١٠٤) الذخيرة، ص ١٠١ وما بعدها. الاستقصا، ص ٦٦٣.
(١٠٥) مثال ذلك (الذخيرة)، ص ١٠٣ حيث «العدو» يقابله «المسلمون».
(١٠٦) مثال ذلك **QC**, pp. 114 f.

أموال من البابا انوسنت الرابع، الذي كان على استعداد للتضحية بجانب من ايراد الكنسية لخدمة قضية المسيحية(١٠٧). وفضلا عن ذلك، وعند التحليل النهائي، فإن كل استراتيجية أبي القاسم تقريبا يمكن تفسيرها برغبته في الحيلولة دون أن تطأ أقدام النصارى ـــ القشتاليين والقطلان وغيرهم ـــ تراب المغرب. إلّا أن الوضع كان مما يزيد في تعقيده عامل آخر يؤثر مؤرخو بني مرين أن يغفلوا ذكره، ولكننا ـــ بخلاف Dufourcq ـــ ينبغي أن نأخذه بعين الاعتبار. وكما أسلفنا، فإن الخطر المرينيّ كان قد شعر به في منتصف الخمسينات من القرن الثالث عشر للميلاد. وفي الوقت الذي كانت فيه مدن الساحل في أمس الحاجة الى المنعة والاستقرار، تعكر صفو السهل الواقع بين أصيلا وطنجة على أيدي جمع من عصاة القبائل المرينية، على رأسهم أحد المنشقين من أبناء عمومة أبي يوسف(١٠٨). وليس من الواضح التاريخ المحدد الذي تجمعوا فيه هناك، ولذلك فإنه لا يمكننا القول على وجه التحديد ما إذا كانوا هم المصدر لقلق العزفي. إلّا أن أيا من الامكانيتين لم تكن مستبعدة، وثمة ـــ كما سنرى عما قريب ـــ ما يوحي بذلك من تصرفهم تجاه طنجة. بيد أننا نستطيع أن نكون واثقين من شيء واحد : انهم هم الذين خلقوا بعد قليل الظروف التي جعلت من أبي القاسم سيدا لطنجة مرة أخرى.

ان ابن الأمين ـــ الذي عرفناه من قبل حاكما مستقلا لطنجة ـــ كان قد اضطر بسبب هؤلاء المشاغبين الى شراء السلم والأمن في السهل(١٠٩)، بل إنه ـــ حسب أحد المصادر ـــ صالحهم على أن له المدينة الحاضرة، ولهم البادية من أحوازها(١١٠). ومهما يكن من أمر، فان هؤلاء الساخطين لم يلبثوا أن طمعوا بأخذ طنجة، وعلموا ـــ عن طريق إظهار حسن النية والمودة ـــ على دخول المدينة مع عدد لا يستهان به من الفرسان المرينيين وغيرهم من الأنصار. وقام ابن الأمين بإنزالهم واستضافتهم في القصبة، إلّا أن الأمراء قتلوا مضيفهم غيلة. لكنهم لم يلبثوا أن نالوا جزءاهم على هذه الفعلة : فقبل أن يتمكنوا من الفرار، فتك بالجناة،

(١٠٧) المرجع السابق، ص ١١٤ والحاشية ٦.

(١٠٨) العبر، ٦ /ص ١٨٦. الاستقصا، ص ٣٥.

(١٠٩) المصدران السابقان بصفحتيهما.

(١١٠) الذخيرة، ص ٩٣. Cf. **Bayan** tr. II, p. 289, n 1.

ووقعت بعد ذلك مذبحة بالمرينيين (٦٦٥ / ٦ ـــ ١٢٦٧)(١١١). إن رواية ابن خلدون عن الأحداث التي تلت ذلك رواية في غاية الايجاز(١١٢)، فهو يقول إن الأهالي اجتمعوا الى ولد ابن الأمين، فبقيت طنجة في مِلْكته خمسة أشهر. ثم استولى عليها العزفي، الذي نهض اليها بعساكره برا وبحرا وفر ابن الأمين ولحق بتونس. ضم العزفي طنجة الى إمارته، وولّى عليها من قِبله، وأشرك الملأ من أشرافها في الشورى. أما رواية ابن عذاري فهي ـــ من بعض الوجوه ـــ أكثر تفصيلا وإفادة(١١٣). يقول ابن عذارى : «ولما كان من قتل بني مرين وبني عبد الحق ما كان، خاف أهل طنجة أن يعاقبهم السلطان أشدّ عقاب، ويولجهم من القتل كل باب. فخاطبوا صاحب سبتة أبا القاسم العزفي، وبعث اليهم القطائع الغزوانية، وبعث اليهم القائد أبا القاسم الرنداحي وابن حمدان. فملكوا طنجة، وقبضوا على أولاد ابن الأمين ورجالهم، واستاقوهم الى سبتة بأولادهم وعيالهم. وولي طنجة ابنُ حمدان من قِبل الفقيه [العزفي]، واستقر بقصبتها، وأعطى الحفز في أبوابها الى أبي عبد الله بن العماد(؟). وبعث الى سبتة بجماعة كبيرة من أعيان أهل طنجة، ورجع حكمها الى صاحب سبتة».

ولعل قراءة ما بين السطور تمكننا من تكوين فكرة صحيحة عن الأحداث وردود الفعل، اذا أعدنا تركيبها على النحو التالي تقريبا. منذ انقلاب عام ٦٥٤ هـ/٦ ـــ ١٢٥٧ م، كان يحكم طنجة رجل من القوة بحيث استطاع حماية مصالحها والاحتفاظ بمنصبه. ولما ضاق أهل طنجة ذرعا بخلفه ـــ واسمه أبو يحيى(١١٤) ـــ وخشوا رد فعل بني مرين المنتظر تجاه المذبحة، رأى معظم أعيان المدينة أن من الحكمة التحالف مع جارهم الأقوى، وان يعيدوا المدينة الى حكم العزفي. إلّا أن معارضة قوية للخطة إما وجهت وإما كانت متوقعة من جانب أسرة ابن الأمين وأنصارها الأوفياء. ولما تم الاتصال بصاحب سبتة وشرحت له الحقائق، بادر باتخاذ اجراء سريع وحاسم لدرء الخطر الذي قد يترتب على وجود طنجة ضعيفة ومنقسمة على نفسها، اذ لعله كان يخشى خطر اسبانيا المسيحية فضلا

(١١١) البيان، ص ٤٣٩. العبر، ينظر في موضعه. الاستقصا، ينظر في موضعه.
(١١٢) العبر، ٧ /ص ١٨٧.
(١١٣) البيان، ص ٣٣٩ ـــ ٤٤٠. [«الغماد» في (البيان)، بيروت ـــ الدار البيضاء ١٩٨٥، ص ٤٣٣]
(١١٤) الذخيرة، ص ١٣٧.

عن عمل انتقالي من جانب سلطان فاس(١١٥). وهكذا قام باحتلال المدينة من جديد وأبعد عنها أقرباء ابن الأمير وأنصاره . ووضعت أبواب المدينة تحت رقابة شديدة، ونصب قائد أقوى في القصبة، كان لديه من الفطنة والقوة ما يكفي لابعاد من لم يتعاون معه من الأعيان، وبذلك أصبحت طنجة من المنعة بحيث أمكنها إحباط الهجوم الذي وقع عليها في آخر الأمر(١١٦).

وفي شهر فبراير من عام ١٢٦٦ م، استولى جيمس الأول صاحب أرجون على مدينة مرسية عنوة، وتم قمع الثورة فيها. ومهما كان الانتصار المسيحي مخيبا لآمال أبي القاسم، فإنه يبدو بأن ذلك الانتصار لم يكن له أي تأثير على مكانته الشخصية، بل إن مكانته لدى القوى المسيحية بالبحر المتوسط تعززت للدور الذي قام به في الكفاح كما يستدل من طريقة تعاملهم معه. فأولا، نجد أن جنوة تتخذ قرارا برفع درجة قنصلها في سبتة الى ما يمكن وصفه بقنصل عام تخضع له كافة قنصلياتها في الأندلس وبلاد المغرب (١٢٦٧ م)(١١٧). وثانيا، نلاحظ أن تاج أرجون كان يسعى بجد في فبراير ١٢٦٩ لابرام معاهدة سلام وهدنة مع صاحب «Senyor» سبتة(١١٨).

بعد النجاحات التي حققها أبو يوسف في جنوب المغرب الأقصى، والتي تكللت باستيلائه على مدينة مراكش (١٢٦٩ م)، كان لا بد له في الوقت المناسب أن يصرف همَّه للاستيلاء كذلك على إمارة العزفي الصغيرة في الشمال، وهي إمارة غنية، وتحتل موقعا حيويا من الناحية الاستراتيجية. لذلك نجده في عام ٦٧٢ /١٢٧٣ يقود حملة ضد طنجة حيث بدأ بُعيد منتصف شهر يونيو حصارا استمر الى منتصف شهر سبتمبر (ربيع أول ٦٧٢)(١١٩). وكانت المدينة ـــ على حد قول ابن خلدون ـــ على وشك السقوط في أيدي المرينيين بعد أيام(١٢٠). إلّا

(١١٥) وكما سنرى بعد قليل، فان أبا القاسم كان يخشى النصارى أكثر من خشيته بني مرين.
(١١٦) في عام ٦٦٦ /٧ ـــ ١٢٥٨ ـــ (البيان، ص ٤٤٠. العبر، ٧ /ص ١٨٧).
(١١٧) QC, p. 115.
(١١٨) المرجع السابق والصفحة.
(١١٩) التاريخ المذكور في كتاب (الذخيرة)، ص ١٣٧، هو غرة ربيع الأول من هذا العام. انظر العبر، ٧ /ص ١٨٧. روض القرطاس، ص ٢٠٨. الاستقصا، ص ٣٥.
(١٢٠) [ان عبارة ابن خلدون لا تنص على ذلك. والعبارة هي «وأقام عليها أياما ثم اعتزم على الإفراج عنها»].

أن هذه الرواية تتعارض مع روايات غيره من المؤرخين، ولو أنها تتفق معها في أن أبا يوسف كان يعتزم رفع الحصار والانصراف، حينما أعرب بعض المدافعين عن المدينة عن رغبتهم في الاستسلام. اننا لا نعتقد بأن السلطان ثناه عن عزمه بضعة أيام من الحصار، بل لا بد لنا من الافتراض بأن ابن خلدون ضغط على مجرى الأحداث. إلّا أن من الممكن قبول قوله بأن حملة طنجة كانت تستهدف إزالة عائق في البسيط بينه وبين سبتة(١٢١). ومن المستبعد ــ كما يبدو ــ أن يكون الباعث على الحملة الانتقام من مذبحة عام ٦ ــ ١٢٦٧، اذ بادر السلطان لدى دخوله المدينة بالعفو عن أهلها.

وبعد أن أصبحت طنجة العزفية في أيدي بني مرين، أصبحت سبتة هدفهم التالي. ويستفاد من مؤرخي بني مرين ــ ومن يعتمد روايتهم ــ بأن المدينة استسلمت لأبي يعقوب ولده دون صعوبة كبيرة، وبعد وقت قصير نسبيا من الاستيلاء على طنجة. إلّا أننا بفضل أبحاث Dufourcq في المصادر الأوروبية يمكننا التأكيد دون أدنى شك بأن الأمر لم يكن كذلك(١٢٢). والحقيقة هي أنه بصرف النظر عن السرعة التي وصلت فيها القوات المرينية الى خارج أسوار سبتة، فإنها كانت ما تزال مرابطة خارجها في شهر نوفمبر ١٢٧٤، دون أن تحقق شيئا. إن سبتة ــ كما أسلفنا ــ لا يمكن الوصول اليها برا إلّا من مكان واحد، وكان هذا من المناعة بحيث إن المحاصرين الموحدين كان عليهم القتال لمدة ثلاثة أشهر في محاولة منهم لدخول المدينة، وقد أخفقوا في نقب الأسوار بالرغم من قفصهم لها يوميا بالصخور من مجانيقهم الثقيلة(١٢٣). ولما كان السبتيون رجال بحر في المقام الأول، فإنهم لم يكونوا يبالون اذا قامت قوات برية بقطع المؤن عنهم من الداخل.

ولكي يتسنّى للمرينيين الاستيلاء على سبتة، كانوا في حاجة الى سفن لضرب حصار حولها من كافة الجهات. ولذلك فإنهم حوّلوا أنظارهم الى القوة البحرية الوحيدة التي كان يبدو أن بمقدورها تلبية تلك الحاجة، وهي مملكة أرجون. إن جيمس الأول كان قد أبرم ــ كما تقدم ــ معاهدة سلام مع العزفي في عام

(١٢١) العبر، ينظر في موضعه.
(١٢٢) **ECM**, pp. 164 ff.
(١٢٣) البيان، ص ٢٨١.

١٢٦٩ م، أما الآن — وهنا اتفق مع Dufourcq في تحليله للبواعث على قرار الملك — وقد لقّنته التجارب التجارية فائدة التعامل مع الحكام المستقرين، فإنه كان على استعداد لمناصرة أبي يوسف «صاحب مراكش وفاس وسجلماسة»(١٢٤). فتم لذلك إبرام معاهدة في برشلونة في ١٨ نوفمبر ١٢٧٤. ولا يعرف على وجه التحديد التاريخ الذي بدأت فيه العمليات بالفعل، وكل ما يمكننا قوله إنها بدأت في الفترة ما بين نهاية عام ١٢٧٤ ونهاية شهر مارس عام ١٢٧٥(١٢٥). إلّا أن من الأكيد أن أبا القاسم أثبت بأنه خصم يرهب جانبه. وبالرغم من مشاركة عدة سفن توفرت لأبي يوسف نفسه، فإن السفن القطلانية العشرين الأولى بين كبيرة وصغيرة(١٢٦) لم تكن كافية للتصدي لأسطول العزفي، مما اضطر قائدها Perez fernandez الى طلب تعزيزات بلغت ثلاثين سفينة أخرى مجهزة بعدة فرق من الرماة. وفي آخر الأمر، رأى أبو القاسم — بما تميّز به من حكمة — أن الرأي في وجه الأعداد المتزايدة قد يكون خيرا من الشجاعة. ولما كان مسلما مخلصا، فانه لم يرق له أن يتيح للنصرانية أدنى فرصة للاستحواذ على موطىء قدم في سبتة. ثم إنه كان ما يزال في وضع يمكنه من الحصول على أفضل الشروط من بني مرين، ولذلك فإنه قرر إبرام الصلح مشترطا على نفسه أن يبعث في كل سنة للسلطان هدية من الأخبية والسلاح والثياب(١٢٧). ولما انتهت المفاوضات، انصرف أبو يعقوب لنقل الخبر الى والده(١٢٨).

ان القرار الذي اتخذه أبو القاسم كان دون شك قرارا صحيحا كما كان — من الناحية السياسية — قرارا ينم عن بعد نظر. فإنه لم يستلم لفاتح كما أنه — عمليا — لم يفقد شيئا، إذ أنه في مقابل «هدية» سنوية — لم تكن فوق طاقته — والوعد بتقديم المساعدة العسكرية لبني مرين، احتفظ في الواقع باستقلاله. كما أنه أسدى خدمة لقضية الاسلام. واستطاع أبو يوسف أن يُغفل البند في معاهدته

(١٢٤) ECM, p. 167

(١٢٥) أميل الى قبول أوائل عام ١٢٧٥، اذ سنرى بان أبا يوسف كان في طريقه الى طنجة في حوالي منتصف شهر مارس ١٢٧٥ لتجهيز حملة الى الأندلس. انظر الحاشية ١٣١.

(١٢٦) ECM, p. 167.

(١٢٧) الذخيرة، ص ٧ — ١٣٨.

(١٢٨) المصدر السابق، ص ١٣٨.

مع ملك أرجون، وهو بند كان سَيجعل منه في الواقع تابعا له(١٢٩). وفي الوقت ذاته، فان الملك جيمس ــ وقد أثبت الفقيه الحصيف بأنه أدهى منه ــ أسقط من حسابه ما كان يعقده من آمال على التحكم في بحر الزقاق، وعلى جني الأموال من «الهدايا الدبلوماسية» من فاس، والقنصليات، والمرتزقة في المغرب الأقصى(١٣٠). أما بنو مرين، فأصبح بإمكانهم الآن التطلع الى المستقبل، وأن يبادروا بالتخطيط لذلك اليوم الذي يستطيع فيه المغرب الأقصى الموحد أن يضرب من سبتة تلك الضربات القوية التي كان من شأنها أن تعزز الاسلام في الأندلس. وأن تطيل في بقائه مستقلا هناك لقرنين آخرين من الزمن.

لم يمض وقت طويل على المصالحة التي تمت بين أبي القاسم وبين بني مرين حتى خرج السلطان أبو يوسف من مدينة فاس قاصدا طنجة إما في حدود منتصف شهر رمضان، وإما في مستهل شهر شوال من عام ٦٧٣ هـ / منتصف أو نهاية شهر مارس ١٢٧٥ م(١٣١). وكان الغرض من وراء ذلك الاعداد لحملة الى الأندلس تلبية لاستصراخ الأندلسيين واستنصارهم به(١٣٢). ومن طنجة كتب السلطان الى العزفي «يأمره بعمارة الأجفان الغزوانية لجهاد المشركين في البحر، وتيسير المراكب وإعدادها بقصر الجواز لتجويز المسلمين المجاهدين»(١٣٣). هذه هي الخطوط التي أمامنا اذا نحن تتبعنا عن كثب وبصورة عفوية ما أورده صاحبا (الذخيرة السنية) و(روض القرطاس»(١٣٤). إلّا أن علينا ــ كما يخيل اليَّ ــ أن لا نولي وزنا أكثر مما تستحق الروايات التي تنزع الى تضخيم دور السلطان المريني وإعطائه صورة سيد كبير يصدر الأوامر الى خادمه الذليل. فإذا أخذنا بشيء من الحسبان ما يقوله ابن خلدون وأمعنا في الوقت ذاته النظر بشيء من الخيال في

(١٢٩) **ECM**, p. 167.

(١٣٠) كشف Dufourcq عن وسائل الخداع التي لجأ إليها جيمس لجعل هذه الجوانب من سياسته الخاصة «بالتغلغل السلمي» في شمال افريقيا تؤتي أكلها. انظر موجزا لها في مراجعتي لكتاب**ECM** في **Studi medievali**, 3 Ser., 8 (1967), pp. 1153 f.

(١٣١) الاول من هذين التاريخين ورد في (الذخيرة)، ص ١٤٣، وورد التاريخ الثاني في (روض القرطاس)، ص ٢١٠. انظر (العبر)، ٧ /ص ١٩١.

(١٣٢) عن الظروف انظر H. Terrasse, **Hist. du Maroc,** II, Casablanca 1950, p. 34.

(١٣٣) الذخيرة، ص ١٤٣.

(١٣٤) المصدر السابق، ص ١٤٣، روض القرطاس، ص ٢١٠.

المعلومات المتوفرة، تسنى لنا رؤية الصورة بشكل أكثر تفصيلا ووضوحا. وللقيام بذلك ينبغي أن نعود الى حصار سبتة، وان ننظر الى رواية ابن خلدون عما أعقب الحصار من أحداث(١٣٥). فهو يقول إن أبا يوسف لم يبق في الشمال مدة أكثر مما كان من الضروري جدا لهذا الغرض. أما السبب في رحيله السريع، فهو أنه كان عليه أن يعجل بالتوجه الى الجنوب لاسترداد سجلماسة التي سقطت ثانية في أيدي بني عبد الواد. وبعد أن حالفه النجاح في مهمته، عاد الى مراكش، ومنها توجه الى سلا حيث كان يعتزم الراحة لبعض الوقت، وأن يدرس في الوقت ذاته أحوال الميناء وتحصيناته. وبعد أيام من وصول السلطان الى سلا، بلغه أن أبا طالب العزفي ـــ ولد أبي القاسم ـــ كان قد وصل الى فاس. وعلى الأثر خفّ السلطان مسرعا الى حضرته، حيث قابل الرسول العزفي بكل حفاوة وتكريم. ولما استأذن أبو طالب بالعودة الى سبتة، حمله السلطان الهدايا وعبارات الامتنان. ثم أخذ في التأهب لإيفاد ابنه على رأس غزاة الى الأندلس.

ان الرواية كما هي يعيبها شيء واحد : فسجلماسة كان قد استولى عليها أبو يوسف في شهر سبتمبر ١٢٧٤، أي قبل استسلام سبتة بشهور. فما الذي جعل أبا القاسم ـــ وهو الرجل العنيد والحذر ـــ يوفد ابنه في مثل ذلك الوقت الى معسكر العدو؟ ولماذا الى فاس؟ ولماذا كل هذا الود والتكريم لابن العزفي؟ إنني أفترض بأن بعثة أبي طالب ـــ ويرد ذكرها كذلك في (الذخيرة)(١٣٦) ـــ كانت بعد أن تصالح والده وأبو يوسف وبحثا في الخطط للشروع في غزاة الى الأندلس. ولذلك، فإذا كان أبو يوسف قد أسرع من الشمال الى سجلماسة، فلا بد أن ذلك حدث لغرض غير الذي ذكر. أما وجود السلطان في سلا، فأمر ليس من العسير توضيحه. إن أية عمليات في الأندلس تحتاج الى السفن، وكما نعلم فإن سلا كانت القاعدة الكبيرة للأسطول على ساحل الأطلنطي. أما فيما يختص بطبيعة بعثة أبي طالب والغرض من ورائها، فإنه يخيل اليّ بأنه جاء ليحث السلطان على القيام بعمل سريع في الأندلس، وليعرض مساعدته في هذا السبيل.

(١٣٥) العبر، ٧ /ص ١٨٧.

(١٣٦) الذخيرة، ص ١٤٠. الرواية مقتضبة وغامضة، ولكنها تتعلق بسجلماسة. انظر (الذخيرة)، ص ١٣٨ حيث يذكر ـــ خطأ ـــ بان استسلام سبتة كان في عام ١٢٧٣. (ولعل رواية ابن خلدون المضطربة عن الأحداث التالية مستمدة من المصدر ذاته).

ومهما كانت حقيقة الأمر، فإن كلا الفريقين لم يُضيع وقتا طويلا في وضع أية ترتيبات كانا قد اتخذاها موضع التنفيذ. وكما ذكرنا، فإن أبا يوسف غادر فاس متوجها الى طنجة في النصف الثاني من شهر مارس ١٢٧٥، ومن طنجة قام بالاتصال بالعزفي. وقام الفقيه — تمشيا مع طبعه — بواجبه كمسلم وأرسل عشرين سفينة من سفنه الى القصر الصغير، وهو الميناء الذي وقع الاختيار عليه ليكون نقطة الجواز كما أنه في موقع مناسب بين سبتة وطنجة(١٣٧). ومما يسترعي الانتباه أن السلطان المريني بقي بعيدا عن سبتة، كما أن أبا القاسم ابتعد عن طنجة. ومن المرجح أن الرجلين عملا معا بروح شريكين أكثر مما عملا كسيد وتابعه. إنه لم يغب عن باليهما صراعهما الأخير، ولذلك فإن كلا منهما لم يكنّ للآخر سوى الاحترام الصحيح. وكان كلاهما يصدر ويذيع بيانات مكتوبة عن أخبار الحملة(١٣٨)، واعترف أبو القاسم من جانبه فيما بعد بجهود أبي يوسف الشخصية بأن كلف أبناءه بالتوجه على رأس وفد من فقهاء سبتة وصلحائها لتحية السلطان المريني وتهنئته لدى عودته الى القصر(١٣٩).

ولعل روح الجهاد المشترك وما نتج عنها من روح التعاون كان لهما أثر كبير في إقامة علاقة لا يشوبها الخلاف بين العزفي وبين سلطانه الاسمي(١٤٠). أما اذا كانت هذه العلاقة قد تطورت الى رابطة من الصداقة الشخصية بينهما، فإنني أشك في ذلك كثيرا، اذ لا يتوفر ما يدل على وجود نوع من الاتصال بين الرجلين يوحي بمثل هذه الرابطة. إلّا أن كلّ الدلائل تشير الى أن العلاقة بينهما كانت تقوم على إدراك للأمر الواقع، وعلى الاحترام المتبادل.

وفي عام ١٢٧٩ م توفي أبو القاسم — ويورد المقّري التاريخ على وجه التحديد، وهو ١٣ ذو الحجة ٦٧٧ /٢٧ أبريل ١٢٧٩(١٤١) — وآل منصبه الى ابنه أبي

(١٣٧) الذخيرة، ص ١٤٣. العبر، ٧ /ص ١٩١. روض القرطاس، ص ٢٣١. الاستقصا، ص ٣٨.
(١٣٨) الذخيرة، ص ١٥٢.
(١٣٩) المصدر السابق، ص ١٦٠.
(١٤٠) لعل الجهاد كان مناسبا لصالح كليهما، وكما يبين تيراس (**Hist. du Maroc**, II, p. 33) فان بني مرين لم يكونوا مصلحين دينيين أو من الشرفاء، وكان «لقب المجاهدين في سبيل الدين هو الذي أضفى نوعا من الشرعية على حكمهم». واما العزفي فقد كان من مصلحته ان يصرف الانتباه الى الاندلس.
(١٤١) أزهار، ٢ /ص ٣٧٤. انظر (العبر)، ٧ /ص ٢٢٨. أما التاريخ المذكور في (البيان المغرب)، الترجمة الاسبانية، ٢ /ص٢١٧، فهو خطأ، كما يبين النص بوضوح في ص ٤٠٢.

حاتم أحمد. ولا يتوفر لدينا الا القليل من المعلومات عن سيرة أبي القاسم الشخصية، إلّا أن المرء لا يحتاج الى نفاذ بصيرة ليكتشف نوعية الرجل. فقد كان ابنا لفقيه صالح وعالم، وسار على خطى والده حتى إنه اكتسب لنفسه صيتا لورعه وعلمه(١٤٢). ويبدو أنه حينما أقام سلطته في سبتة لم تعترضه أية صعوبة. لقد كان يحظى بالاحترام قبل ثورته، وبعد الثورة ازدادت مكانته تقديرا واحتراما(١٤٣). ومما ساهم كثيرا في شعبيته وحب الأهالي له دون شك ما كان يصدر عنه من مظاهر الورع والكرم، كقراره بالاحتفال احتفالا كبيرا بمناسبة المولد النبوي، وسخائه نحو مواطنيه وتوزيعه الهدايا(١٤٤). كما أن مكانته لا بد وأنها قد تعززت لدى العامة بسبب مواقفه، كرفضه الصفح عن سفك دماء الأبرياء من قِبَل أخيه ابراهيم ــ وكان دونه استقامة وورعا ــ وتصميمه على إيقاع العقوبة المستحقة عند القبض عليه(١٤٥). ومع ان أبا القاسم قد يكون أقام في قصر، وعاش عيشة الملوك(١٤٦)، إلّا أنه يبدو بأنه لم يسمح قط لثروته أو منصبه بإفساده. ولما كان يشعر شعورا قويا بالأخطار التي تهدد الاسلام في المغرب، فإنه صرف كل همه وتفكيره دون تردد الى الجهاد. ومع أن من الواضح أنه كان شجاعا وشديد الغيرة على استقلاله واستقلال بني بلده، إلّا أنه يبدو بأنه كان أساسا رجلاً مسالما وحذرا بطبيعته. إن عواطفه الوفية نحو الخليفة المرتضى تترك انطباعا حسنا عنه، كما أن استعداده للتصالح مع المرينيين قبل أن يُضطر الى الاستسلام يكشف عن أن الواقعية والدبلوماسية كانتا من جملة خلاله. وخلاصة القول، فإن من السهل أن يدرك المرء الأسباب التي أدت الى وصوله الى زعامة سبتة واحتفاظه بها. كما أن سبتة لم تنسه : فذكراه بقيت ما بقيت مدينة سبتة في أيدي المسلمين، وقد تمثلت على الأقل بما شيِّد من مبان خلفها بعد وفاته(١٤٧).

(١٤٢) انظر (أزهار الرياض)، ٢ /ص٣٧٧. وعن صيته فقيها انظر QC, p. 109 n 3 والمراجع المذكورة هناك.
(١٤٣) العبر، ٧ /ص ١٨٦. انظر (البيان المغرب)، ص ٤٠١.
(١٤٤) البيان، يُنظر في موضعه.
(١٤٥) العبر، ٦ /ص٣٤٣. فرَّ ابراهيم الى المشرق للنجاة من العقاب.
(١٤٦) يفهم ذلك ضمنا من ملاحظة ابن خلدون بان أبناء العزفي توقفوا عن مواصلة هذا النمط من العيش ارضاء لبني مرين (العبر، ٧ /ص ٢٢٩).

(٢) المتأخرون من بني العزفي

تمهيد :

تمَّ في السنوات الاخيرة الكشف عن قدر كبير من المادة حول سبتة في دور المحفوظات الأوروبية من قبل Ch. E. Dufourcq الذي يعد كتابه **L'Espagne Catalane et le Maghrib**، من عدة وجوه، ذا قيمة كمصدر أولي. لذلك فإن المادة عن سبتة في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) في حاجة الى إعادة النظر فيها.

إنني أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ بدرو شالميتا لإفادتي بأن الأستاذ التونسي محمد الحبيب الهيلة قدَّم في الملتقى الاسباني ــ التونسي الثاني (مدريد، مايو ١٩٧٢) بحثا بعنوان : «Quelques lettres de la chancellerie de Ceuta au temps des Azafides».

(١٤٧) فضلا عن الفندق الكبير الذي سبقت الاشارة اليه، نجد ذكرا لحوض بديع الصنع لسقاية الدواب، وصومعة أكبر مساجد سبتة بعد المسجد الأعظم (الأنصاري، ص ١ ــ ١٦٢، ٤ ــ ١٥٥).
[وبنى العزفي بسبتة سوراً بجانب المنارة (٦٤٨ هـ)، كما بنى الجُبَّ في أسفل الميناء من سبتة (٦٥٤ هـ) ــ الدخيرة، ص ٨٠، ٨٢].

ملحوظة : نشرت في مجلة (الأندلس)، العدد ٣٤، دراسة ممتعة لجزء من كتاب (الدر المنظّم) بقلم ف. دي لاجرانخا F. de la Granja بعنوان «الأعياد المسيحية في الأندلس» «Fiestas cristianas en al-Andalus» ص ١ ــ ٥٣. ولما كان هذا العدد من المجلة قد تأخر صدوره، فانني لم أشر في البحث إلّا الى مخطوط واحد من الكتاب (الحاشية ٢٩)، إلّا أن هناك مخطوطات أخرى رجع اليها الاستاذ دي لا جرانخا.

(١٤٨) انظر ص II/سطر ٥٨٠ ــ ٥٨٥ أعلاه. يرد الشهر واليوم في (أزهار الرياض)، ٢ /ص ٣٧٤.
وينبغي النظر الى هذا التفصيل بعين الحذر اذ ان تواريخ أخرى في المصدر ذاته عن بني العزفي غير دقيقة بالمرة.

وأرى لزاما عليَّ بان أسجل شكري العميق للأستاذ محمد الحبيب الهيلة لتكرمه بإرسال صورة من بحثه اليَّ. ويتناول البحث احدى عشرة رسالة من مجموعة بالمكتبة العبدلية بمدينة تونس. ويرجع تاريخ هذه الرسائل الى الفترة الزمنية ١٢٥٠ ــ ١٢٨٤ م، وقد حررها كاتب إشبيلي اسمه خلف بن عبد العزيز الغافقي القبطوري (ت ١٣٠٤ م) الذي ولي نحوا من ثلاثين سنة رئاسة ديوان الانشاء بمدينة سبتة، الى أن نزح الى مدينة تونس بعد وفاة أبي القاسم العزفي.

وليس هذا مجال بحث موضوع هذه الرسائل بالتفصيل، حتى لو أمكن ذلك دون دراسة نصوصها الأصلية. بَيْدَ أنه ينبغي أن نلاحظ بأنها تكشف عن قيام هدنة لم نكن نعلم عنها من قبل بين سبتة وبين قشتالة، ويرى الأستاذ الهيلة أن تاريخها يعود الى حدود عام ١٢٥١ م (تفتقر الرسائل الى التواريخ، ولذلك يعتمد في تأريخها على الأدلّة الداخلية). ان شروط الهدنة ــ تؤدي سبتة ٤٠.٠٠٠ دينار في السنتين الأوليين، وتفرج عن عدد معين من الأسرى النصارى ــ توحي بأن سبتة كانت محاصرة. ولا بد أن المدينة كانت في وضع حرج وصعب، إذ أن قشتالة اقترحت ــ من مركز القوة ــ تجديد الهدنة لسنتين أخريين في مقابل أداء ٧٠.٠٠٠ دينار. وتبين الرسائل بأن أبا القسم ــ بدبلوماسية بارعة ــ نجح في إقناع سلاطين الموحدين والمرينيين والنصريين على حد سواء بأن الحاجة تستدعي أن يبذلوا قصارى جهدهم لإنقاذ سبتة. وثمة إشارة مهمة على وجه الخصوص الى اتفاق تم التوصل اليه بين العزفي والسلطان المريني أبي يحيى (حكم ١٢٤٤ ــ ١٢٥٨ م) بقصد الحصول على مساعدة السلطان للدفاع عن سبتة.

توفي أبو القاسم العزفي في ١٣ ذي الحجة عام ٦٧٧ /٢٧ أبريل عام ١٢٧٩، بعد أن كان الحاكم الفعليَّ لسبتة لما يقرب من ثلاثين عاما، وخلفه في منصبه ابنه أبو حاتم أحمد(١٤٨). ودون تعليق أو تفسير يمر المقري بولاية أبي حاتم مرورا سريعا ملاحظا أنه خلع عام ٦٧٨ (١٤ مايو ١٢٧٩ ــ ٣ مايو ١٢٨٠) وتولّى أخوه أبو طالب عبد الله(١٤٩). إلّا أنه يبدو لي أن في هذا مبالغة في تبسيط

(١٤٩) أزهار، ٢ /ص ٣٧٧.

الحقائق. إن ما حدث — إذا أخذنا بما ذكره ابن خلدون(١٥٠) — هو أن أبا حاتم — وهو أصغر سنا من أخيه — خلف أباه، وأن أبا طالب كان رديفا له في الأمر. إلّا أن أبا حاتم — وكان رجلا غير طموح ومؤثرا للخمول — لم يرغب في أن يحرم أخاه الأكبر منه سنا من حقه بحكم السن، أو أن يتولى هو السلطة وثمة أخ كان دور القيادة أكثر ملائمة له. وفي هذه الظروف، استبدَّ عليه أبو طالب. وهذا لا يعني بالضرورة — كما يبدو لي — بأنه عزله بشكل رسمي، بل إن ثمة من الأسباب ما يدعو الى الافتراض بأنه لم يفعل ذلك. فأولا، يتحدث ابن خلدون عن الأخوين وكأنهما كانا يشتركان في الحكم معا، اذ أنه يلاحظ بأن أبا حاتم كان ينظر فحسب في العرائض — وكما سنرى بعد قليل، فإن ثمة ما يدل على ذلك — بل يتحدث كذلك، وبصيغة المثنّى، عنهما وعن سياستهما وعن سلطتهما(١٥١). وثانيا، فان لدينا خطاب اعتماد مؤرخا في نوفمبر ١٢٩٤ لسفير جيمس الثاني صاحب أرجون الى «صاحب سبتة» الذي يرد اسمه في خطاب الاعتماد على أنه «Botain» الذي يبدو لي أنه على ما يرجح تحريف للاسم «أبو حاتم» لا للاسم «أبو طالب»(١٥٢). ومهما كانت حقيقة الأمر، فإنه يبدو أن مما لا شك فيه أن ولاية سبتة وملحقاتها انتقلت الى يدي الابن الاكبر سنا، مع أن من الواضح أن أبا القاسم لا بد وأن اختياره كان قد وقع على ابنه الاصغر سنا خلفا له.

إن الأسباب التي جعلت أبا القسم يؤثر أبا حاتم ليست واضحة تماما. كان أبو طالب أكثر اهتماما بالسياسة من أخيه، ولا بد أن والده كان واثقا من قدرته وإلّا لما كان أوفده الى فاس رسولا عنه الى السلطان المريني، وكان ذلك بالتأكيد في احدى السنوات الأربع الأخيرة من حياة أبي القاسم(١٥٣). ولما كنا نعلم الجانب الدينيَّ من شخصية أبي القاسم وصلاح والده وورعه من قبله(١٥٤)، فلعل أبا حاتم ورث صفاتهما الدينية فبدا لأبيه — وقد أشرف على الموت — بأنه أكثر ورعا وتدينا من أخيه، وبالتالي فهو الأنسب للولاية.

(١٥٠) العبر، ٧ /ص ٨ — ٢٢٩. يؤيد ابن خميس تصويره لشخصية أبي حاتم (أزهار ٢ /ص ٢٢٧).
(١٥١) العبر، ٧ /ص ٢٢٩. انظر كذلك ٧ /ص ٢٤٨.
(١٥٢) **ECM**, p. 234 n 6; 235 n 1. هذا وقد تكون مشتقة من «أبو طالب».
(١٥٣) انظر أعلاه، ص II/سطر ٥٥٠ — ٥٦٠.
(١٥٤) انظر أعلاه، ص II/سطر ٥٨ — ٧٢، II سطر ٥٨٨ — ٥٩٤.

وأكثر غموضا من أسباب اختيار أبي القاسم الوضع في الأسرة لأخ ثالث هو أبو محمد قاسم الذي نلمح عنه إشارة غير متوقعة في كتاب (المقصد الشريف) لعبد الحق البادسي، حيث نراه ينجح في التماس تقدم به لأبي حاتم نيابة عن البادسي وأبيه اللذين كانا في حاجة ماسة للمال لافتداء اختين للبادسي وزوجة أبيه من أيدي آسريهنَّ النصارى(١٥٥). ويصعب القول ما اذا كان قاسم شغل أي منصب خاص في ادارة سبتة، ولكن لما كنا نجده في شهر مايو ١٢٨٥ في الأندلس على رأس غزاة قوامها ٥٠٠ من الرماة(١٥٦)، فإننا لا نستبعد أن يكون شغل منصب «قائد البحر»(١٥٧) أو منصبا ساميا على الجند.

لم يحاول أبو حاتم وأبو طالب بعد وفاة أبيهما قلب سياسته القائمة على التعاون مع المرينيين(١٥٨)، بل على العكس من ذلك، فإنهما لم يحرصا فحسب منذ البداية على اعلان السيادة المرينية في كافة الأراضي الخاضعة لهما، بل انهما كذلك تخليا عن مظاهر السلطة الملكية وعن السكنى في القصور التي يبدو أن أبا القاسم كان قد اعتاد الإقامة فيها(١٥٩). ان هذه السياسة قد تبدو لأول وهلة سياسة مصالحة وتهدئة إلّا أنه ــ في رأيي ــ لا يمكن النظر اليها بمعزل عن الوضع القائم في الأندلس، وكما رأينا، فإن خطر اسبانيا المسيحية كان الشاغل الأكبر لأبي القاسم، لأنه كان ثمة خطر حقيقي جدا في أن تنتقل حرب الاسترداد Reconquista الى تراب المغرب(١٦٠). كما أن الفونس العاشر من جانبه لم يكن غافلا عن مخاطر التدخل المريني في الأندلس. إن ذكرى المرابطين والموحدين كانت

(١٥٥) **Maqçad**, pp. 139 f., 216 n 445

(١٥٦) روض القرطاس، ص ٢٣٤.

(١٥٧) كان منصب قائد البحر من المناصب السامية بسبتة. ويتضح من كافة الاشارات الى المنصب في الفترة التي نتناولها بالدراسة أن صاحب المنصب كان يقاتل برا (ولعله في هذه الحالة كان من الرماة بالقوس ــ انظر «موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الاسلامية»، ص I/سطر ٢٨٠ ــ ٢٧٧.

من هذا الكتاب) فضلا عن قتاله بحرا.

(١٥٨) انظر أعلاه، ص II/سطر ٥٢٠ ــ ٥٧٠.

(١٥٩) العبر، ٧ /ص ٢٢٩. يسمي ابن خلدون القصور بقصور الملك، ومن الصعب معرفة ما اذا كانت هذه القصور قد استولى عليها أبو القاسم العزفي. في عهد المرتضى الموحدي أو أنها من تشييد بني العزفي أنفسهم. عن الامكانية الاولى انظر أعلاه، ص II/سطر ١٩٦ ــ ٢١٠.

(١٦٠) انظر أعلاه، ص II/سطر ٢٢٠ ومواضيع أخرى تتكرر.

كافية لتبرير ما قد يساوره من مخاوف من غزو يأتي عبر بحر الزقاق. ولا يمكن أن يكون قد غاب عن باله أن أبا يوسف ــ أثناء غزاته في الأندلس عام ١٢٧٧ م ــ كان قد وطّد مركزه في مالقة، ولذلك فإن الفونس العاشر أبدى بميناء الجزيرة الخضراء الاستراتيجي اهتماما أكبر مما كان قد أولاه من قبل، إذ أنهّ ما إن عاد السلطان المريني الى المغرب الأقصى، حتى حاول وقف المد قبل انسيابه. فانتهك شروط الهدنة القائمة آنذاك، وقام بمحاصرة الجزيرة الخضراء بحرا(١٦١). وكانت النتيجة المباشرة لهذا العمل انتزاء قائد الحامية المرينية في مالقة وتسليمه المدينة ــ في مقابل مبلغ كبير من المال ــ لسلطان غرناطة النصري الطموح محمد (الثاني) ابن الأحمر(١٦٢). ومع أن أبا يوسف أولى أهمية كبيرة لفقدان مالقة، وبالرغم من كونه تواقا لمعالجة قضية الأندلس، إلّا أنه لم يكن قادرا على العمل بسبب أزمة أكثر إلحاحا في المغرب الأقصى. لذلك، فإنه قبل نهاية شهر فبراير ١٢٧٩، تحرك الفونس وعسكر على رأس جيشه خارج أسوار الجزيرة الخضراء، فكانت المدينة عند وفاة أبي القاسم العزفي محاصرة برا وبحرا(١٦٣). وفي هذه الظروف، لم يكن غريبا أن يسارع أبناء أبي القاسم الى التدليل على ولائهم لفاس. وبحلول شهر مايو ١٢٧٩، كان الوضع في الجزيرة الخضراء حرجا، وبمجرد ما أصبح في مقدور أبي يوسف تقديم العون، أرسل ابنه أبا يعقوب الى طنجة(١٦٤). ولما وصلها الأمير في ١ صفر ٦٧٧ /١٣ يونيو ١٢٧٩، أصدر فورا أوامره لاعداد المراكب في سبتة وطنجة وبادس وسلا. ويبدو أن العزفيين كانوا ــ سياسيا وعسكريا ــ بمثل القوة التي كانوا عليها في عهد أبي القاسم، اذ لا شك في أنهم اضطلعوا بالدور الرئيسي في الأحداث التالية.

ان أبا حاتم العزفي لما وصله كتاب الأمير أبي يعقوب يأمره بالعمارة، جمع أشياخ سبتة وقوادها ورؤساءها وغزاتها، فندبهم للجهاد وحضهم على نصرة أهل

(١٦١) روض القرطاس، ص ٢٢٢، Cf. **ECM**, p. 201. منذ البداية كان أبو يوسف قد صرف همه الى المزايا الاستراتيجية الكبيرة للجزيرة الخضراء وشرع في اتخاذها قاعدة رئيسية له (انظر العبر، الترجمة الفرنسية، ٤ / ص ٧٦، ٨٠ ــ ٨١. روض القرطاس، ص ٢١١، ٢١٤، ٢١٦). انظر كذلك **EI²**, II, p. 525.

(١٦٢) روض القرطاس، ص ٢٢٢. وانظر (العبر)، ٧ /ص ٢٠١ حيث تختلف الرواية اختلاف طفيفا.

(١٦٣) روض القرطاس، ص ٢٢٣. وانظر (العبر)، ٧ /ص ٢٠٢.

(١٦٤) روض القرطاس، ص ٢٢٣. انظر العبر، ٧ /ص ٢٠٢.

الجزيرة. وقد عمرت سبتة خمسا وأربعين سفينة ما بين كبار وصغار، وركب فيها تطوعا برسم الجهاد جميع من بسبتة من الفقهاء والصلحاء والطلبة والتجار والسوقة ومن لا معرفة له بالحرب، ولم يبق بسبتة إلّا النساء والزمناء والشيوخ والصبيان. فاذا أخذنا في الحسبان أن مجمل السفن التي كان باستطاعة أبي يعقوب تعميرها في مراسي طنجة وسلا وبادس وأنفا كان لا يتجاوز خمس عشرة سفينة ــ وحتى بنو نصر أصحاب غرناطة كانت مساهمتهم اثنتي عشرة سفينة ــ أمكننا القول بأن بني العزفي في الواقع كانوا عماد الأسطول المريني. وينبغي أن لا ننسى ما قاله الأنصاري فيما بعد مما يجعلنا نفترض بأن كافة أصحاء البدن من الذكور في سبتة كانوا يدربون على استعمال السلاح، وبخاصة القوس والقوس العقارة، وقد لعب دورا مهما في المعارك البحرية عموما(١٦٥)، وفي هذه الحملة على وجه الخصوص(١٦٦). ومهما يكن من أمر، فإن اسطول المسلمين هذا من اثنتين وسبعين قطعة اجتمع في سبتة ومنها أقلع الى طنجة(١٦٧) فركب فيها هنالك جماعة من جند بني مرين، ثم أبحرت قاصدة جبل الفتح، وفي ١٥ ربيع أول ٦٧٨ /٢١ يولوي ١٢٧٩ اشتبكت السفن مع الأسطول القشتالي وهزمته وأفرجت عن الجزيرة الخضراء. وهكذا فإن بني العزفي مرة أخرى أسدوا خدمة جليلة لقضية الاسلام في المغرب(١٦٨).

ان هذه الضربة للمسيحية بشبه جزيرة ايبرية لم تمض دون أن يُثأر لها، ولكن لا يمكن التكهن فيما اذا كان ذلك حدث عرضا أو عن قصد. فبعد بضعة أسابيع فقط ــ في أواخر فصل الصيف أو أوائل فصل الخريف ــ قام اسطول ملك أرجون بهجوم مباغت على مياه سبتة(١٦٩). ففي طريق العودة من حملة ناجحة في شرق المغرب الاسلامي، قام قائد الاسطول القطلاني لانشيا ــ كما يذكر المؤرخ

(١٦٥) «موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الاسلامية»، ص I/سطر ٢٨٠ ــ ٣٨٠. من هذا الكتاب. الأنصاري، ص ١٦٦ــ١٦٧.

(١٦٦) روض القرطاس، ص ٢٢٥. انظر (العبر)، ٧ / ص ٢٠٣.

(١٦٧) روض القرطاس، ص ٢٢٤. وانظر (العبر، ٧ /ص ٢٠٣.

(١٦٨) عن خدماتهم السابقة، انظر أعلاه صص II/سطر ٥٠٠ ــ ٥٢٠، سطر ٥٦٠ ــ ٥٨٠. يرى L. Torres Balbas ان تاريخ هذه المعركة هو في فصل الربيع لا في منتصف فصل الصيف من عام ١٢٧٩ (انظر **ECM,** p .201, n4).

(١٦٩) **ECM,**, pp. 201 f.

القطلاني منتانر Muntaner ـــ «بدخول مرسى سبتة والظفر بعدة سفن وطرائد للمسلمين»(١٧٠). ولم يأسر عددا من سفن سبتة فحسب، بل اجتذب أيضا عشر سفن مطاردة للقتال في وسط البحر، فاستولى على سفينتين أخريين وأغرق سفينة ثالثة(١٧١). ويرى Dufourcq في تعليقه على هذا الحادث ـــ ولعله مصيب في ذلك ـــ بأن عمل قائد الأسطول لانشيا لم يكن مجرد غارة عرضية، بل كان جزءا من سياسة دبرها ملك أرجون بطرس الثالث(١٧٢). فقد انتهز صاحب أرجون فرصة هدنته مع سلطان غرناطة ـــ وكان آنذاك في خصام مع بني مرين ـــ واغتنم الفرصة لتذكير المغرب بقوته البحرية، وهو أمر ضروري ـــ في نظري ـــ إذ إن أرجون لم يكن في وسعها أن تعرض سفنها للاعتراض وسط البحر، وكانت هذه السفن حيوية لسياسة بطرس في وسط البحر المتوسط(١٧٣). ومهما كان التفسير الصحيح للحادث، فإن نتائجه واضحة، إذ أعقبت الغارة عدة سنوات من الهدوء في بحر الزقاق.

ولفهم هذه المرحلة من تاريخ سبتة العزفية، ينبغي أن يذكر شيء ولو قليل عن عدم استقرار العلاقات الايبرية ـــ المغربية / المسيحية ـــ الاسلامية. إن هذه العلاقات تفصيلا علاقات معقدة ومربكة بسبب سلسلة متشابكة من التحالفات والاتفاقيات وانتهاكاتها، ولكنها في أساسها بسيطة اذ ما علينا إلّا أن نتذكر بأن الاتفاقيات ـــ لا بين المسلم والمسيحي بل أيضا بين أبناء الدين الواحد ـــ كانت تبرم وتنتهك بصورة متكررة تدعو الى الدهشة على أساس المصلحة في غالب الأحيان من أجل مكسب قصير الأمد. ان بني نصر سلاطين غرناطة(١٧٤) كانوا

(١٧٠) انظر المرجع السابق، ص ٢٠١، الحاشية ٤.
[رامون منتانر مغامر قطلاني، وله تاريخ تناول فيه الأحداث من سنة ١٢٠٥ الى سنة ١٣٢٧، وهو غني بالمعلومات عن جزر البحر المتوسط وتمجيد لانتصارات القطلان وقادتهم. انظر أمين الطيبي: «العلاقات بين جزيرتي جربة وصقلية في أواخر القرون الوسطى»، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس ـــ ليبيا، السنة السادسة، العدد الاول، ١٩٨٤، ص ٦ ـــ ١٥٧]

(١٧١) **ECM**, pp. 201 f.

(١٧٢) المرجع السابق، ص ٢٠٢

(١٧٣) المرجع السابق، الفصل الثالث، القسم الثاني، ص ٢٣٨ وما بعدها. انظر كذلك ص ٢٣٤

(١٧٤) حكمها محمد الثاني الملقب بالفقيه (١٢٧٣ ـــ ١٣٠٢) ثم محمد الثالث الملقب بالمخلوع (١٣٠٢ ـــ ١٣٠٩).

في خوف دائم من أن يُخلعوا من قبل بني مرين في فاس(١٧٥)، ولذلك فإن بني نصر ــ رغبة منهم في وقف المغاربة ــ لم يتوانوا عن التحالف مع قشتالة(١٧٦) أو أرجون(١٧٧). أما بنو مرين فانهم لم يترددوا في التحالف مع أرجون لاخضاع بني العزفي في عام ٦٧٣ /٤ ــ ١٢٧٥(١٧٨)، كما أنهم قاموا ــ سعيا وراء استرداد موطىء قدم في الأندلس ــ بالتحالف عام ١٢٨٥ مع الفونس العاشر ضد ابنه الثائر عليه ــ الملك شانجه الرابع فيما بعد ــ الذي كان آنذاك يحظى بتأييد أرجون. وفي هذه الغزاة المرينية الرابعة، انضم أبو محمد العزفي ورماة سبتة الى أبي يوسف (٢ ربيع أول عام ٦٨٤ /٩ مايو ١٢٨٥) وأبلوا بلاء حسنا في القتال(١٧٩).

أما فترة السلم النسبي التي أعقبت غارة لانشيا على سبتة في عام ١٢٧٩، فلها أسباب يمكن تحديدها بوضوح. فأولا، حينما واجه أبو يوسف تحالفا غير متوقع بين بني نصر وقشتالة، ثم واجه وضعا لم يكن في وسعه فيه الاعتماد على أسطول قوي يكفل له العبور من سبتة الى الجزيرة الخضراء، فإنه اتخذ قرارا حكيما ــ بعد تقدير الوضع من طنجة ــ بالتخلي عن الجهاد في الأندلس في تلك الآونة(١٨٠). وثانيا، فإن الهدف الاول للسبتيين لا بد وأنه كان كسب الوقت لتعويض الخسائر التي لحقت بسفنهم، إذ أن السفن كانت أمرا حيويا لتلبية كل من حاجات سبتة الاقتصادية ومركزها الاستراتيجي والحربي. وأخيرا، وبالتأكيد ليس آخرا، فان المغرب الأقصى لم يكن على رأس قائمة الأولويات لمملكة أرجون ــ قطلونية. إن جيمس الأول صاحب أرجون كان قد نجح في تحويل افريقية ــ

(١٧٥) انظر .Cf. I. de las Cagigas, **Los mudéjares**, II, Madrid 1946-49, pp. 250 f. انظر كذلك شارل ــ اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس ١٩٧٨، ص ٥ ــ ٢٢٦.

(١٧٦) حكمها الفونس العاشر (٥٢ ــ ١٢٨٤) ثم شانجه الرابع (٨٤ ــ ١٢٩٥) ثم فرديناند الرابع (١٢٩٥ ــ ١٣١٢).

(١٧٧) حكمها بطرس الثالث (٧٦ ــ ١٢٨٥) ثم الفونس الثالث (٨٥ ــ ١٢٩١).

(١٧٨) انظر أعلاه ص II/سطر ٥٠٠ ــ ٥٢٠. وكما سنرى فيما بعد فان السلطان المريني أبا يعقوب حاول عقد تحالف مماثل.

(١٧٩) روض القرطاس، ص ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧.

(١٨٠) .Cf. **ECM**, p. 302 أما وجهة النظر الاسلامية كما ترد في (روض القرطاس)، ص ٢٢٦ فتختلف عن ذلك.

وهي بلاد غنية بالعملة الذهبية وذات موقع جيد على طريق بحري حيوي الى المشرق — الى ولاية مالية من ولايات امبراطورية التاج التجارية. وكان الهدف الأول الآن للملك بطرس الثالث أن يدعم هذا المركز في افريقية، وأن يهيمن على المضيق بين صقلية وبين افريقية بتثبيت قدمه في كلا الجانبين(١٨١).

استغل بنو العزفي دون شك فترة توقف القتال لاعادة بناء أسطولهم وإعادة تجارتهم وتنميتها. وفي أواخر صيف عام ١٢٨٥، نجد سفن سبتة تحارب في بحر الزقاق(١٨٢). إلّا أنه لا يمكن القول بأنهم استعادوا السيطرة على بحر الزقاق، كما يبدو من حذرهم فيما بين عام ١٢٩٢ و١٢٩٤. أما بالنسبة لبني مرين، فإن هذه السنوات كانت سنوات صعبة تخللتها كوارث في الأندلس بفقدانهم طريف (١٢٩٢)، وانتهت أولا بمحاولة لاستردادها باءت بالفشل (١٢٩٤)، وثانيا بتنازلهم لسلطان غرناطة عن الجزيرة الخضراء ورُندة وعمليهما(١٨٣). ويكاد يكون من المؤكد أن هذه النكسات كانت نتيجة لعدم توفر مساعدة فعالة من الأسطول. فهل كانت سبتة عاجزة عن القيام بهذه المهمة؟ ان من المؤكد أنها كانت كذلك عام ١٢٩٢، إذ أن القوات البحرية المشتركة للائتلاف الكبير الذي ضم قشتالة وأرجون وغرناطة وتلمسان كانت أمرا ينبغي أخذه في الحسبان(١٨٤). ولكن لماذا لم تبرز سبتة كقوة بحرية بعد انفصام عرى الائتلاف؟ لعلها خشيت من خطر قيام ائتلاف ثان، إلّا أن الاعتبار الأول لا بد وأنه كان حماية مصالحها الخاصة. إن سبتة طالما كان لها أسطولها وتجارتها فإنه كان بإمكانها البقاء بدون بني مرين، كما كانت قد فعلت في السابق. بل إن سلطانا مرينيا — وقد عوقب — قد يهيىء لسبتة قسطا أكبر من الاستقلال، كالذي كانت قد نعمت به في الماضي. ومهما يكن من أمر، فإن من الواضح أن سبتة خرجت من التدخل المريني في شبه جزيرة ايبرية سالمة دون أن يلحقها ضرر يذكر. وأهم من ذلك، فإن مركزها كان

(١٨١) Cf. **ECM**, p. 253.

[انظر البحث المشار اليه في الحاشية رقم ١٧٠ بعنوان «العلاقات بين جزيرتي جربة وصقلية في أواخر القرون الوسطى»، ص ١٥٢ وما بعدها].

(١٨٢) روض القرطاس، ص ٢٤٣.

(١٨٣) **ECM**, p. 221

(١٨٤) المرجع السابق، ص ١ — ٢٢٣.

على الأقل من القوة بحيث إن صاحب أرجون جيمس الثاني حرص في شهر نوفمبر ١٢٩٤ على اعتماد سفيره صامويل لا الى السلطان المريني فحسب، بل أيضا الى «صاحب سبتة» العزفي(١٨٥).

ومهما كانت طبيعة العلاقات السياسية بينهما، ومهما كانت منازعاتهما والتوترات بينهما بشأن المسألة الايبرية، فإن صاحبي برشلونة وسبتة كان يجمعهما شيء واحد على الأقل، ألا وهو النظرة التجارية التي مكنتهما في زمن السلم — وأحيانا في زمن الحرب — من مزاولة التجارة لفائدتهما المتبادلة. وهكذا، فإننا نجد أنه في بداية القرن الرابع عشر كان رعايا أرجون — وبخاصة من برشلونة وطرطوشة وميورقة(١٨٦) — من العناصر البارزة بين الكثيرين من التجار النصارى في مدينة سبتة(١٨٧). ولعل خير دليل على متانة مثل هذه الروابط الاقتصادية هو أن أبا طالب العزفي استطاع في سنة ١٣٠٢ — دون صعوبة كما يبدو — أن يشتري حصة في سفينة تجارية قطلانية من صاحبها في طركونة(١٨٨).

واذا كانت علاقات بني العزفي علاقات طيبة مع مملكة أرجون، فإنه يبدو بأن علاقاتهم بأبي يعقوب لا يمكن وصفها بأنها كانت علاقات ودية. ويبدو أنهم وفوا بواجباتهم العسكرية، فأرسلوا جنودا لمساعدة القوات المرينية في حصارها الطويل لمدينة تلمسان حاضرة بني عبد الواد(١٨٩)، ولكنهم من ناحية أخرى لم يعودوا يؤدون خراجا لفاس، وفي نهاية يونيو أو بداية يوليو من عام ١٣٠٤، ذكر بأنهم كانوا قد تأخروا عن أداء إجمالي الضريبة في حدود مائة الف دينار من الذهب. فقد رفضوا دفع هذا المبلغ وظفروا بمساندة بني نصر وبني عبد الواد، فثاروا على سلطانهم(١٩٠). ويخيل إليَّ بأن بني العزفي في العقد الأخير من القرن الثالث عشر كانوا يؤثرون جني الفوائد المضمونة من التجارة السلمية على الخسائر السياسية والاقتصادية التي قد تنجم عن تورطهم النشط في حملات تكتنفها المخاطر في

(١٨٥) المرجع السابق، ص ٩١، ٤٦٦.
(١٨٦) عن وضع ميورقة آنذاك انظر ECM, pp. 411 § n.2, 419.
(١٨٧) المرجع السابق، ص ٣٥٧.
(١٨٨) المرجع السابق، ص ٤٦٦.
(١٨٩) استمر الحصار من عام ١٣٩٨ الى عام ١٣٠٦، انظر EI², I. pp, 92f.
(١٩٠) ECM, p. 380

الأندلس. لذل فانهم أعادوا بناء اقتصادهم، ولما كان فشل المرينيين قد أظهر تصدعا متزايدا في القوة الحربية للسلطة المركزية، فإن بني العزفي كانوا يفكرون في الاستقلال الذي كان والدهم قد نَعِم به. ومهما يكن من أمر، فإن أبا يعقوب اضطر الى اتخاذ عمل سريع إن لم يكن لشيء آخر فلخيانة رماة سبتة في تلمسان حينما حاولوا تسليم المنصورة للعدو(١٩١). ان النظرة الخطيرة التي نظر فيها السلطان المريني الى انفصال سبتة يمكن تقديرها من الشروط التي كان السلطان على استعداد لتقديمها للحصول على مساعدة جيمس الثاني صاحب أرجون : ففضلا عن نصيب من الغنائم يتلقى جيمس ٣٠.٠٠٠ دينار ذهبي لمجرد تواجد أسطوله في مياه سبتة، و٥٠.٠٠٠ دينار في حالة الاشتباك في معركة لإخضاع الثائرين(١٩٢). إلّا أن جيمس كان أكثر انشغالا بمسألة تسوية خلافاته مع قشتالة، ولذلك فإنه أخذ في المماطلة. وتوحي مطالبته بدفعات مسبقة معينة بأنه كان يذكر التجربة غير المجزية للتاج بالنسبة لتحالف مماثل في عام ٦٧٣ هـ /٤ ــ ١٢٧٥(١٩٣). ولعله كذلك كان لصاحب أرجون ــ كما يرى Dufourcq ــ دافع اقتصادي لتردده عن العمل، ألا وهو الوضع المجزي لعلاقاته التجارية مع سبتة، وهي العلاقات التي ستتعطل مما يعود بالفائدة على منافسيه من اشبيلية وجنوة وغيرهما(١٩٤).

وكما حدث في الماضي، فإن سبتة يتعذر إخضاعها من ناحية البر، وطالما عملت المفاوضات الطويلة بين جيمس وبين أبي يعقوب على تأخير تدخل فعال من جانب الأسطول، فإن بني العزفي كان بوسعهم ــ آمنين ــ تحدي بني مرين. ولما حلت الضربة بقوتهم آخر الأمر، فإنها لم تكن من الخارج، بل من الداخل. إن رواية ابن خلدون أكثر الروايات تفصيلا لما حدث، كما يبدو أنها ــ من بعض النواحي ــ أصحُّها(١٩٥). ويبدو من هذه الرواية أن بني العزفي كانوا

(١٩١) المرجع السابق والصفحة.

(١٩٢) المرجع السابق والصفحة.

(١٩٣) انظر أعلاه، ص II/سطر ٤٩١ ــ ٥٢٢.

(١٩٤) .Cf. **ECM**, pp. 381 f.

(١٩٥) العبر، ٧ / ص ٢٢٩. روض القرطاس، ص ٢٦٨. الاستقصا، ص ٨٢. انظر كذلك كتاب (اللمحة البدرية) للسان الدين بن الخطيب، بيروت ١٩٧٨، ص ٦٦.

ــ منذ البداية ــ قد عهدوا بقيادة الحامية وبالمسؤولية عن حفظ الأمن العام لرجل اسمه عبد الله بن مخلص. وقد قام بأعماله من مقره بالقصبة لسنوات عديدة دون اساءة ــ كما يبدو ــ لأحد، الى أن وقع نزاع آخر الأمر بينه وبين ولد لأبي طالب اسمه يحيى اتهم القائد بسوء التدبير، فجرده من سلطته على أسرته وحاشيته، وشكاه الى والده أبي طالب بتهمة اختلاس أموال خصصت للدفع لأفراد الحامية. ومع أن أبا طالب العزفي ظل يثق في القائد، فإن الأخير يبدو أنه كان مع ذلك ناقما ويشعر بعدم الطمأنينة. ومهما كانت الطبيعة الحقيقية لتلك المشاعر، فإنه سرعان ما استغلها السلطان النصري بمداخلة ابن عمه ابي سعيد والي مالقة، الذي أقنع القائد بالانتفاض على بني العزفي، ووعده بنقله سالما في أسطول بني نصر. وللتمويه على أهل سبتة، شرع أبو سعيد في انشاء الأساطيل البحرية واستنفار الناس للمثاغرة بحجة أنه علم بقرب وقوع هجوم نصراني على مالقة، وأخفى وجه قصده عن الناس، حتى أقلعت سفنه ليلة ٢٧ شوال عام ٧٠٥ هـ / ١٣ مايو ١٣٠٦ م صوب سبتة، فأرسى بساحتها لموعد صاحب القصبة، فأدخله الى حصنه فملكه ونشر راياته بأسوارها. ثم ركب الى دور بني العزفي فتقبض عليهم وعلى حاشيتهم، فأركبوا السفن الى مالقة، ومنها الى غرناطة، وقدموا على محمد الثالث فأجل قدومهم، وأركب الناس الى لقائهم حتى أدوا بيعتهم وأنزلوا بالقصور، وأجريت عليهم أرزاق سنية. وفي البلاط النصري يبدو أنهم ألحقوا بخدمة الدولة من قِبَل الوزير القوي للسلطان محمد، وهو محمد بن الحكيم الرُندي(١٩٦).

وهكذا انتهت «الدولة الأولى» لبني العزفي كما سماها بحق أحد المصادر. وأقيمت الدعوة في سبتة لصاحب غرناطة، فظل محمد الثالث ــ الى أن خلع في مارس ١٣٠٩ م ــ يزهو باتخاذه لقب «ملك غرناطة وصاحب سبتة»(١٩٧).

انتهى حكم بني نصر في سبتة في ٢٠ ــ ٢١ يوليو ١٣٠٩. فقد ثار أهل سبتة لسخطهم على حكم سلطان غرناطة، واستسلمت للسلطان المريني أبي الربيع الحامية النصرية في القصبة، بعد أن وقعت بين الثائرين من جهة وبين الجيش

(١٩٦) العبر، ٧ /ص ٢٤٨. الاستقصا، ينظر في موضعه، وعن الوزير محمد بن عبد الحكيم الرندي، انظر كتاب (اللمحة البدرية) المذكور في الحاشية السابقة، ص ٦٣.

(١٩٧) **ECM**, p. 385 عن استيلاء سلطان غرناطة النصري على سبتة ونتائجه، انظر : R. Arié, **L'Espagne musulmane au temps des Nasrides**, Paris 1973, pp. 86ff.

المريني من جهة أخرى(١٩٨). وبالنسبة لبني العزفي، فإن عودة السلطة المرينية الى سبتة كان فألا حسنا، فاستأذنوا سلطان غرناطة بالعودة الى المغرب، فوافق على ذلك(١٩٩). وبما أن بني العزفي استقروا في فاس، فإنه يبدو بأن السلطان أبا الربيع لم يكن في نيته إعادتهم الى وضعهم السابق في سبتة. وليس من الواضح ما اذا كانوا قد حاولوا العودة الى سبتة. إلّا أن من الواضح أن ابني أبي طالب ــ يحيى (يسميه بعضهم أبا زكرياء ويسميه البعض الآخر أبا عمرو أو أبا عمر)(٢٠٠) وأبا زيد عبد الرحمن استغلّا الفرص التي أتاحتها لهما اقامتهما في العاصمة المرينية. وكان كلاهما من ذوي الميول العلمية، وبخاصة يحيى الذي استطاع أن يجعل اهتمامه بالعلوم الفقهية يعود عليه بالفائدة(٢٠١). فبسماعه دروسا ومداولات فقهية في جامع القرويين الشهير اتصل اتصالا وثيقا ــ ولعل ذلك عن قصد لا عرضا ــ بالأمير أبي سعيد عثمان، الذي كان كبير أفراد البيت المالك، بوصفه ابنا لأبي يوسف يعقوب، وأخا للسلطان أبي يعقوب يوسف. فسعى يحيى جاهدا لكسب ود الرجل والتأثير عليه ــ ولا بد أنه كان يُدرك مكانته ونفوذه ــ فأصبح مقربا من الأمير نفسه الذي قدر له ــ بعد نيف وعام من عودة بني العزفي الى المغرب ــ أن يرتقي العرش بعد وفاة أبي الربيع (نوفمبر ١٣١٠)(٢٠٢). إن يحيى لم يكن قد أضاع وقته سدى، فقد عُين واليا على سبتة (٧١٠ / ١٣١٠ ــ ١٣١١)، وعاد وأسرته لما يصيب ابن خلدون في تسميته «بمقر إمارتهم منها»(٢٠٣). وولي أخوه أبو

(١٩٨) حَكم ١٣٠٨ ــ ١٣١٠ بعد أبي ثابت (حكم ٧ ــ ١٣٠٨) الذي خلف أبا يعقوب يوسف. وعن نهاية حكم بني نصر في سبتة، انظر : العبر، ٧ /ص ٢٤٦. روض القرطاس، ص ٢٧٢. الاستقصا، ص ١١٣.

(١٩٩) العبر، ينظر في موضعه. الاستقصا ينظر في موضعه.

(٢٠٠) «أبو زكرياء» في (الاستقصا)، ينظر في موضعه، وكذلك في (المُسند) لابن مرزوق، طبعة الجزائر ١٩٨١، ص ١١٩. «أبو عمر» في (أزهار الرياض)، ٢ /ص٣٧٧. «أبو عمرو» في **Maqçad**، ص ١٦٣. وفي المصدر الأخير تستمد التسمية من مصدر موثوق به. ان الكنية «ابا زكرياء» ليست بالضرورة غير صحيحة، اذ إن كنية واحدة لا تلغي تلقائيا امكانية وجود كنية أخرى.

(٢٠١) العبر، ينظر في موضعه. الاستقصا، ينظر في موضعه.

(٢٠٢) عن وفاة السلطان ابي الربيع انظر (العبر)، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ١٨٨. جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تونس ١٩٧٨، ص ٢٢٧.

(٢٠٣) العبر، ينظر في موضعه. الاستقصا، ينظر في موضعه. انظر (أزها‌ر الرياض، ٢ /ص ٣٧٧. على أساس التواريخ الواردة في (أزهار الرياض)، ٢ /ص ٣٧٨. فان يحيى كان في أوائل الأربعين من عمره اذا أخذنا بعين الاعتبار وجود خطأ طفيف في تواريخ (أزهار الرياض).

زيد قيادة الأسطول، وتقلد لقب «قائد البحر»، في حين أن أخا ثالثا هو أبو الحسن علي ولي الإشراف على دار الصناعة(٢٠٤).

ان ما حدث لا بد وأنه بدا لبني العزفي وكأنهم في طريقهم مرة أخرى الى النجاح واسترداد استقلالهم القديم. إلّا أن الطريق لم يكن دون عثرات. فقبل انقضاء وقت طويل، تعرضوا لنكسة مؤقتة حينما ثار الأمير أبو علي على أبيه السلطان (أكتوبر ــ نوفمبر ١٣١٤) وحظي لبعض الوقت بولاء الجزء الأكبر من المملكة(٢٠٥). فعقد على سبتة لأبي زكرياء حيون بن أبي العلاء القرشي، وعزل يحيى ابن أبي طالب عنها، واستقدمه الى فاس، فقدمها هو وأبوه أبو طالب وأخوه عبد الرحمن وعمه حاتم، واستقروا في جملة السلطان. وقد قدر لأحدهم ــ وهو أبو طالب ــ ان لا يعود أبدا الى سبتة، اذ توفي وكانت وفاته وفاة طبيعية. ويذكر بأنه كان عند وفاته في الخامسة والسبعين من العمر(٢٠٧)، وهنا ينبغي أن نقبل خطأ هامشيا اذ أن التاريخ الذي يرد لوفاته هو سنة ٧١٣ /١٣١٣، وهو تاريخ لا يمكن أن يكون صحيحا اذا قبلنا ــ كما ينبغي أن نقبل ــ كافة التواريخ الأخرى في هذه القرينة(٢٠٨)، وعلى ذلك، فانه كان في حدود الأربعين من عمره حينما تسلم مقاليد الحكم بعد وفاة والده.

لم يطل غياب يحيى عن سبتة، اذ عقد السلطان ليحيى بن أبي طالب على سبتة (٧١٥ /٥ ــ ١٣١٦)، بعد ما أظهر من ولاء لأبي سعيد أثناء حصار فاس الجديد(٢٠٨) إلّا أن السلطان في هذه المرة لا بد وأنه كان لديه من الأسباب ما جعله يرتاب في صدق ولاء بني العزفي، أو أنه كان تحت ضغط للشك في هذا

(٢٠٤) ابن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح.. الجزائر ١٩٨١، ص ١١٩.

(٢٠٥) العبر، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ٩١ وما بعدها. انظر جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، تونس ١٩٧٨، ص ٢٢٧. Terrasse **Histoire du Maroc**, II, Casablanca 1950, p. 48.

(٢٠٦) أزهار، ٢ /ص ٣٧٧.

(٢٠٧) انظر **ECM**, p. 459. جوليان، ص ٢٢٨. Terrasse، ينظر في موضعه.

(٢٠٨) العبر، ٧ /ص ٢٤٦. الاستقصا، ص ١١٣.

الولاء، اذ انه اشترط بقاء محمد بن يحيى تحت رقابته رهنا على طاعة أبيه(٢٠٩). ويبدو أن بقية أفراد الأسرة عادوا مع يحيى الى سبتة، بما فيهم عمه أبو حاتم، الذي وافته المنية بُعيد وصولهم الى سبتة (٧١٦ /١٣١٦)(٢١٠). وقد خلف أبو حاتم على الأقل ابنا اسمه ابراهيم قام فيما بعد بالالتحاق بخدمة بني مرين في فاس(٢١١).

ولدى العودة الى سبتة، بادر يحيى بالاستقلال عن بني مرين. وكان ابنه ما يزال مرتهنا في فاس، إلّا أنه لما كان أبو سعيد رجلا تقيا ورحيما(٢١٢)، فإنه يبدو بأن العزفي الداهية قرر أن بإمكانه المجازفة بحياة الرهينة، فأعلن استقلال سبتة وهو على رأس حكومتها يعاونه مجلس شورى(٢١٣). ولا يعرف على وجه التحديد ما اذا كان عمله هذا كان بدافع الطموح الشخصي، أو لعدم الرضا عن سياسة أبي سعيد، وبخاصة رفضه المشاركة في الجهاد، وكان ثمة مطالبة بالجهاد في سبتة وأحوازها(٢١٤). وكل ما يتوفر لدينا من معلومات هو أن يحيى استقدم من الأندلس مطالبا بالعرش المريني، هو عبد الحق بن عثمان(٢١٥)، وعهد اليه بقيادة العمليات الحربية ليفرق الكلمة به، وليخلق حاجزا بين سبتة وبين الجيش الذي كان يحيى

(٢٠٩) العبر، ٧ / ص ٢٤٧. الاستقصا، ص ١١٤.
جاء في (أزهار الرياض)، ٢ /ص ٣٧٨ ان محمدا ولد في سبتة في شوال ٦٩٩ /يوليو ـــ اغسطس ١٣٠٠، وأنه توفى في فاس ـــ حيث كان «كاتب الحضرة» ـــ في ١١ صفر ٧٦٨ /١٧ أكتوبر ١٣٦٦، عن ثمان وستين سنة هجرية. ان من الصعب أخذ أي من هذه التفاصيل على ظاهرها، اذ يبدو بأن المؤلف ـــ بصرف النظر عن كافة الاعتبارات ـــ يخلط بين محمد هذا ـــ وكان يكنى بأبي القاسم، كما سنرى ـــ وبين أبي القاسم محمد بن يحيى الغساني البرجي كاتب السلطان أبي فارس عبد العزيز (حكم ٦٦ ـــ ١٣٧٢). وفيما عدا ذلك، فاذا اعتبرت التفاصيل صحيحة اجمالا، فان محمدا يكون في نحو السادسة عشرة عند احتجازه في فاس، ولعل هذا هو الصحيح، اذ لا داعي لاعتباره ـــ كما يفعل دي سلان (العبر، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ٢٠٠) في ترجمته للنص بتصرف ـــ بانه كان في سنة ٧٢٨ /٧ـــ١٣٢٨ «لا يزال صغير السن جدا للاشراف على الدفاع عن المدينة».
(٢١٠) العبر، ٧ /ص ٢٤٧. الاستقصا، ينظر في موضعه.
(٢١١) انظر أدناه.
(٢١٢) انظر جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، ص ٢٢٧.
(٢١٣) العبر، ينظر في موضعه، الاستقصا، ينظر في موضعه.
(٢١٤) Cf. **ECM**, p. 467 § n 10.
نشط هناك في حدود مارس ١٣١٦ م حجاج من غرناطة في حملة لاثارة الاهتمام بمحنة المسلمين في الأندلس.
(٢١٥) عنه، انظر (العبر)، ٧ /ص ٣٦٨. الاستقصا، ص ٩٥، ٢ ـــ ١٠٣.

يتوقع أن يجهز ضده(٢١٦). أما الصعوبة المتمثلة في الرهينة محمد فإنها ذُللت بأساليب تنم عن دهاء وجرأة. فلما وصل الجيش المريني كما كان متوقعا عرض يحيى الطاعة في مقابل تسليمه ابنه. ولما علم السلطان بالاقتراح وافق عليه، وبعث بالرهينة من فاس الى المعسكر المريني، حيث لم تلبث عيون يحيى بالمعسكر أن عرفت الفسطاط الذي كان ينزل فيه. وفي جنح الظلام قام قائد قواته عبد الحق بالتغلغل في صفوف المرينيين، ونجح في تخليص الأسير(٢١٧).

والى عام ٧١٩ /١٣١٩ ظل يحيى العزفي مستقلا تماما عن فاس(٢١٨)، ثم أعرب في هذا العام عن رغبته في المصالحة مع أبي سعيد(٢١٩). فنهض السلطان الى طنجة لاختبار طاعة العزفي، ولعله أراد أن يجري معه مفاوضات أو تبادلا في الأسرى. ولما اقتنع أبو سعيد بصدق العزفي، عقد له من جديد على سبتة، واشترط يحيى على نفسه بأن يبعث بخراج الى السلطان، وبأن يقدم له هدية سنية كل عام. ولا تزودنا المصادر المتوفرة بجواب صريح عن السبب الذي من أجله قرر العزفي التخلي عن استقلاله وقبول التبعية لسلطان. فالسلطان أبو سعيد لم يكن حاكما قويا قادرا على فرض سلطانه دون مواجهة مشاكل أخرى(٢٢٠). وعلى النقيض من ذلك، فإن كافة الروايات تفيد بأن يحيى كان جنديا باسلا وجريئا، بل إن أحد المصادر يذكر أنه كان أول عزفي يعمل فارسا كان بمقدوره أن يستعمل رمحه وسيفه بمهارة، وأن يجند فرقا للعمل تحت إمرته(٢٢١) ومما يدل على أنه كان رجل عمل ومحاربا متحمسا توليه شخصيا قيادة حملة قامت في عام ١٣١٦ م بشن هجوم على جبل طارق ــ وكان قد سقط في يد ملك قشتالة عام ١٣٠٩ م ــ

(٢١٦) العبر، ٧ /ص ٢٤٧. الاستقصا، ص ١١٤.

(٢١٧) المصدران السابقان.

(٢١٨) ليس ثمة من الأسباب المعقولة ما يحمل على قبول ما ذكره جوليان بانه «في سنة ١٣١٦... أعلن يحيى بن العزفي استقلاله وبقي على هذه الحال في الواقع ما يقرب من عشرة أعوام. (جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، ص ٢٢٨).

(٢١٩) العبر، ٧ /ص ٢٤٧. الاستقصا، ص ١١٥.

(٢٢٠) عن مشاكله مع ابنه أبي علي الذي كان دائما على استعداد للقيام على أبيه رحيم القلب، انظر (العبر) الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ١٩١ وما بعدها. جوليان، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨. تيراس، ص ٥٢.

(٢٢١) أزهار، ٢ /ص ٣٧٨.

ودخلت الربض في ظاهره(٢٢٢). أما في البحر، فيبدو أنه صمد في بحر الزقاق وفيما وراءه، إذ أن جيمس الثاني صاحب أرجون حينما رغب في إيفاد مبعوثين الى تلمسان في ربيع عام ١٣١٩ م رأى من الحكمة أن يزودهما بخطاب اعتماد الى «صاحب سبتة» خشية وقوعهما في أيدي سفنه(٢٢٣). فيبدو من ذلك أن من الناحية الحربية كان بوسع يحيى ـــ لو أنه رغب في ذلك ـــ إغفال أبي سعيد، خصوصا وأن أبا سعيد كانت تواجهه مشاغل أخرى(٢٢٤). ومن ناحية أخرى، فإنه عبر بحر الزقاق كان مسلمو الأندلس في وضع سيء، اذ كانت قوات قشتالة في شهر يونيو ١٣١٩ م قد تقدمت الى فحص غرناطة(٢٢٥). ولم تجد الاستصراخات التي وجهت الى أبي سعيد لأنه زعم بأن أحد أفراد فرع مناوىء من بني مرين كان يتولى قيادة المجاهدين في مملكة غرناطة(٢٢٦)، إلّا أن السبب في ظننا يكمن في أن تدخله كان سيكلفه كثيرا دون أن يعود بفائدة تذكر على غرناطة بدون سبتة وأسطولها، فضلا عن أن طريف وجبل الفتح كانا في أيدي القشتاليين. فإذا أخذنا هذه الظروف بعين الاعتبار، جاز لنا أن نتساءل : هل قرر يحيى من تلقاء نفسه أو تحت الضغط المحلي بأن الوقت قد حان ـــ بالنظر الى وضع الاسلام الحرج في الأندلس ـــ لاستئناف الجهاد بتعاون كامل من جانب بني مرين؟ ان من المستبعد ـــ كما يبدو لي ـــ أن يكون الداهية يحيى قد توصل بنفسه الى مثل هذا القرار. إن تجارب يحيى في السباق، ومعرفته الشخصية بحذر أبي سعيد وميوله السلمية ـــ ناهيك عن الخطر المستمر من الثورات الداخلية في مملكته ـــ يستبعد أن تكون قد أقنعت يحيى العزفي بان السلطان كان الرجل الذي يمكن له أن يقوم بحملات كالتي كان يستدعيها الوضع.

وفي غياب ما يخالف ذلك، فإن التفسير الأكثر ترجيحا لما قام به يحيى يكمن

(٢٢٢) روض القرطاس، ص ٢٧٦.
ولتاريخ أدق لهذا الحادث انظر : **ECM**, p. 467.

(٢٢٣) **ECM**, pp. 91, 466

(٢٢٤) انظر الحاشية ٢٢٠ أعلاه.

(٢٢٥) انظر ص ٥٥٠ من كتاب De Las Cagigas المشار اليه أعلاه في الحاشية رقم ١٧٥ انظر كذلك (كتاب العبر)، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص٢٠٥ وما بعدها.

(٢٢٦) العبر، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ٥ ـــ ٢٠٦. أرى من الصعب جدا قبول وجهة نظر تيراس بان «أبا سعيد رفض التدخل بسبب كراهيته لعثمان» (Terrasse, p. 49).

ــ فيما يبدو ــ في وجود منافس له في سبتة ذاتها. وكان هذا المنافس هو أبو العباس أحمد الحسيني(٢٢٧)، وهو رجل من ذرية فرع من شرفاء جزيرة صقلية كان لديه ما يجعله يبغض بني العزفي. أما قصة نزاعه مع بني العزفي(٢٢٨) فيمكن تلخيصها فيما يلي : كان بنو العزفي قد أكرموا أسلاف أبي العباس عند نزوحهم الى سبتة، بل وصاهروهم، ثم عظم صيتهم في البلد مما جلب عليهم آخر الأمر نقمة بني العزفي. ولا شك في أن الحسينيين أفادوا ــ بل واستغلوا عمدا ــ من نسبهم الشريف في بلاد معروفة، بنزعتها الى تمجيد الأولياء والصالحين(٢٢٩). فاتخذ يحيى العزفي قرارا بتغريب الأسرة الى الأندلس، وكان من بين أفرادها أبو العباس ووالده. فاعترضتهم مراكب النصارى في بحر الزقاق ووقعوا في الأسر. ولما علم السلطان أبو سعيد بذلك، انتدب لفديتهم رعاية لشرفهم. إن عودتهم الى المغرب لا بد وأنها كانت مصدرا لفزع يحيى، إذ أن الطموحات السياسية التي من الواضح أنه كان يخشاها من الأسرة تحققت تماما كما سنرى.

ان تاريخ وفاة يحيى العزفي يرد في أحد المصادر على أنه كان ٦ شعبان ٧١٩ / ٢٢ سبتمبر ١٣١٩(٢٣٠)، ويرد في مصدر آخر على أنه كان عام ٧٢٠ / ١٣٢٠ ــ ١٣٢١(٢٣١). إلّا أن التاريخين كليهما غير صحيحين، اذ نعلم من العبارة الختامية في مخطوطين من كتاب (المقصد الشريف) لعبد الحق البادسي أن يحيى كان ما يزال حيا وفي فاس عام ٧٢٢ /٢ ــ ١٣٢٣(٢٣٢). ومهما كان التاريخ الصحيح لوفاته، فانها كانت بداية النهاية لبني العزفي كقوة في سبتة. وقد خلف يحيى ابنه أبو القاسم محمد الذي ولي ــ لسبب غير واضح ولعله بسبب

(٢٢٧) ان النسبة «الحسني» التي ترد في عدد من المواضع كنسبة لهذا الرجل نسبة غير صحيحة. حول النسب انظر (أزهار الرياض)، ١ /ص ٣٣. انظر كذلك : Le Tourneau, **Fès avant le Protectorat**, Casablanca 1949, pp. 488 f.

(٢٢٨) ابن خلدون : التعريف...، تحقيق الطنجي، القاهرة ١٩٥١، ص ٨١ ــ ٨٢ حيث ترد الرواية بشيء من التفصيل. انظر المقّري : نفح الطيب...، تحقيق احسان عباس، بيروت ١٩٦٨، ٥ /ص ٦٤٩.

(٢٢٩) انظر (أزهار الرياض)، ١ /ص ٣٩ (حيث يُروى أنه كان يقول حتى للسلطان «لعلك تحسبني خديما، لست كذلك، وإنما نحن معشر أهل البيت شفعاء في الدنيا، وشفعاء في الآخرة»).

(٢٣٠) أزهار، ٢ /ص ٣٧٨

(٢٣١) العبر، ٧ /ص ٢٤٧. الاستقصا، ص ١١٥.

(٢٣٢) **Maqçad**, pp. 163, 226

طبيعته(٢٣٣) ــ تابعا لابن عمه محمد بن علي(٢٣٤). ويبدو أن هذا الرجل كان عند وفاة أخيه قائد الأساطيل خلفا ليحيى الرنداحي الذي ينتمي الى اسرة الرنداحي التي اشتهرت في السنوات الأولى من تاريخ بني العزفي(٢٣٥). ويكتنف الغموض الأحداث التالية في المصادر المتوفرة(٢٣٦). وكل ما يمكننا قوله هو أن القانون والنظام اختلا، وان المنازعات في صفوف الأهالي شجعت السلطان على الزحف الى سبتة (٧٢٨ /٧ ــ ١٣٢٨) بغرض توطيد سلطته فيها نهائيا. ان عجز الضعيف أبي القاسم محمد عن المقاومة حمل ابن عمه محمد بن علي على القيام بنفسه بعمل حينما هرع أهل المدينة للاعتراف بسلطة السلطان المريني. وقد نجح في كسب بعض الأهالي الى جانبه، إلّا أن أعيان المدينة لم يرضوا بشيء من ذلك، فأقنعوا مؤيديه بالخضوع لحكم السلطان، وسلموا أبناء العزفي للسلطان أبي سعيد. ومن هذه الرواية للأحداث لا يمكننا إلّا أن نستنتج بأن سبتة لا بد وأنها ــ مرة أخرى ــ أعلنت استقلالها الذاتي إما قبل وفاة يحيى العزفي وإما بعد وفاته.

إن الأسباب التي أدَّت الى انهيار سلطة بني العزفي بهذه الطريقة غير المنتظرة قد تكون أسبابا متعددة ومعقدة، إلّا أننا نجانب الواقع اذا نحن أغفلنا سخط الشريف أبي العباس أحمد الحسيني الناقم وطموحاته السياسية. فما أن انتهى حكم بني العزفي حتى برز هذا الرجل ــ الذي كان حتى ذلك الحين مبهما ــ

(٢٣٣) لا يوجد دليل أكيد على حداثة سنه. تنظر أعلاه الحاشية رقم ٢٠٩. اذا قبلنا التواريخ عن حياته الواردة في (أزهار الرياض) على وجه التقريب، فان الاكثير ترجيحا هو أن محمدا كان في العشرينات من عمره.

(٢٣٤) العبر، ينظر في موضعه، (تُقرأ في الاستقصا «ابن عمه» بدلا عن «عمه»)، الاستقصا، ينظر في موضعه.

(٢٣٥) انظر أعلاه، ص ص II/سطر ــ٩ــ١٥ ــ ٢٢٦ وما بعدها.

يتضح تماما من ترجمته وتعليقه في (العبر)، الترجمة الفرنسية، ٤ /ص ٢٠٠، ان دي سلان قد خلط بين يحيى هذا وبين معاصر لجد والد محمد بن علي! وبعد قراءة دقيقة للنص، وإلمام بتاريخ الفترة وتاريخ بني العزفي، فانني أرى أن يحيى الزنداحي هذا ــ كسميِّه ــ كان ينتمي الى الاسرة ذاتها، وأنه غُرِّب الى الاندلس من قبل يحيى العزفي (هل كان ذلك بسبب مداخلاته مع الشرفاء الحسينيين الذين غرَّبهم كذلك كما رأينا؟).

(٢٣٦) العبر، يُنظر في موضعه. الاستقصا، يُنظر في موضعه.

رئيسا للشورى في سبتة(٢٣٧). ان سيرته التالية تكشف لنا عن سياسي لعب — وكسب — لعبة ماهرة لتحقيق رهان كبير(٢٣٨).

لا تتوفر لدينا معلومات أكيدة ودقيقة عن مصير أبي القاسم محمد. ويغلب على الظن أنه نقل مع بقية أفراد أسرته الى فاس، حيث كان من الممكن الاستفادة من خدمتهم ومراقبتهم في الوقت ذاته(٢٣٩). لقد عرف ابن خلدون بالتأكيد كلا من محمد وابن عم له اسمه حسين بن عبد الرحمن (أبي زيد)، اذ يخبرنا بأنهما زوداه بالتفاصيل الخاصة بحموه ابن الحكيم الوزير والجندي والوالي الحفصي الكبير(٢٤٠). ويمكننا أن نفترض بأن اقامته في البلاط المريني (١٣٥٤ — ١٣٦٣ م) كان من شأنها أن تهيىء له أفضل فرصة للتعرف اليهما(٢٤١). ويستفاد من أحد المصادر بإنه بعد استيلاء المرينيين على قسنطينة (١٣٥٧ م)، قرر أبو عنان تعيين محمد في منصب اداري فيها، إلّا أن العزفي — وكان متعلقا بمسقط رأسه — أبى قبول المنصب(٢٤٢). وكان بودنا أن نعرف المزيد عن حسين بن عبد الرحمن، فاسمه يوحي بأن والدته قد تكون من الحسينيين، وان يحيى قد يكون رأى من السياسية أن يتزوج أخوه زواجا مصلحيا في وجه الخطر من جانب الشرفاء.

(٢٣٧) ابن خلدون : التعريف، ص ٨١. (عرف ابن خلدون الشريف شخصيا).

(٢٣٨) لم يحظ بالعطاء الجزل من السلطان ابي عنان فحسب (أزهار، ١ /ص ٣٩) بل كان السلطان يستدعيه كل عام الى العاصمة لحضور الاحتفالات بالمولد النبوي (انظر أعلاه ص II/سطر ٦٠ — ٨٢) التي سنها ببلاد المغرب أبو القاسم العزفي. وكما يقول ابن خلدون فانه لم يكن يقطع بسبتة أمر دونه، وكان يعامل في فاس بمنتهى الحفاوة والتكريم (التعريف، ص ٨١). ويمكننا أخذ فكرة عن مكانة الشرفاء في سبتة اذا تصفحنا كتاب (اختصار الاخبار) للانصاري.

(٢٣٩) ان بني العزفي — كما تقدم — نفوا في مناسبات سابقت الى فاس أو احتُجزوا فيها. وفضلا عن ذلك، فاننا لا نستطيع أن نغفل ما جاء في كتاب (أزهار الرياض)، الحاشية ٢٠٩ أعلاه، فانه قد يكون صحيحا جزئيا إن لم يكن صحيحا حتى كليا.

(٢٤٠) العبر، ٢ /ص ٤٧٩. عن ابن الحكيم انظر R. Brunschvig, **La Berbérie orientale sous les Hafsides**, 2 vols., Paris 1940 - 47 index.

F. Rosenthal, **Ibn Khaldun : The Muqaddimah**, 3 vols, New York 1958, XLVf.
(٢٤١) انظر Rosenthal, ob. cit, XLV-XLVIII, **EI²**, III, p. 826. يستبعد أن يكون ابن خلدون قد اجتمع بهما في سبتة في طريقه الى الاندلس عام ١٣٦٢ حتى لو كانا في المدينة، فقد كان ضيفا على الشريف ابي العباس أحمد الذي روى له آنذاك قصة معاملة بني العزفي لوالده وله (التعريف، ص ٨١ — ٨٢).

(٢٤٢) أزهار، ٢ /ص ٣٧٨. يذكر أنه انهار وبكى لأنه لم يستطع تحمل الانفصال عن أسرته ومسقط رأسه. ويبدو أنه كان رجلا حساسا ومن أهل العلم، وكان شاعرا مجيدا لفن الموشحات.

ومع أن بني العزفي — كأسرة — لم يستردوا بعد ذلك قط مركزهم في سبتة، فإنه يبدو بأن بني مرين لم يحقدوا على أي منهم، بل استفادوا مما كان بإمكانهم تقديمه من مواهب وخبرة. ففي عام ١٣٣٠ م نجد ابراهيم بن أبي حاتم في تونس كأحد مبعوثين كلفهما أبو سعيد بخطبة أميرة حفصية لابنه المرشح لولاية عهده أبي الحسن(٢٤٣). ومن المهدش أن محمد بن علي الذي رأيناه يصمد الصمود الشجاع الأخير دفاعا عن ولاية بني العزفي في سبتة يظهر من جديد قائدا للأسطول الكبير الذي جهزه أبو الحسن والذي اشتبك في شهر أبريل ١٣٤٠ م مع أسطول قشتالي كبير قبالة الجزيرة الخضراء وكاد أن يقضي عليه(٢٤٤). وكان ما يزال قائدا لأسطول السلطان بعد ذلك بعشر سنوات، وقد لقي مصرعه في معركة كان يقاتل فيها الى جانب القوات البرية ضد بني عبد الواد في سهل شلف (ربيع أول ٧٥١ /مايو — يونيو ١٣٥٠)(٢٤٥).

وحينما ننظر الى النهاية السياسية لهذه الأسرة السبتية العظيمة المثقفة التي كانت في ذروة مجدها مصدر إلهام للشعراء(٢٤٦)، فإننا نجد بأنها لم تكن تفتقر الى العظمة والمجد كما كان من الممكن. كما أنها لم تكن أسرة عرف عنها سفك الدماء. إن من المدهش حقا الأسلوب المتمدن الذي يبدو أن بني مرين وبني العزفي كانوا دوما يلجأون اليه في تسوية الخلافات بينهما. ولا شك في أن بني العزفي — كأسرة — نالوا عن جدارة الاحترام ليس فحسب بسبب ورعهم وثقافتهم بل أيضا بسبب مهاراتهم وخبرتهم البحرية البارزة التي — في شخص محمد بن علي العزفي — بقيت بعد سقوط الأسرة سياسيا.

(٢٤٣) العبر، ٧ / ص ٢٥٢.

(٢٤٤) كانت هذه المعركة نصرا بحريا عظيما للإسلام (انظر «موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الاسلامية»، ص I/سطر ٢٧٠ — ٢٧٨ من هذا الكتاب).

(٢٤٥) يحيى بن خلدون : بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر ١٩٨٠، ص ٢٤٤.

(٢٤٦) انظر قصيدة ابن خميس في (أزهار الرياض)، ٢ / ص ٣٢٥ وما بعدها. نظم هذا الشاعر قصيدته في زمن ابي حاتم وأبي طالب، وكرس اثنين وأربعين بيتا منها الى مدح «سبتة وملوكها بني العزفي».

مختصرات أسماء المصادر العربية الواردة في الهوامش

ـ ازهار الرياض : المقّري : أزهار الرياض، ٣ مجلدات، القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥
ـ الاستقصاء ـ الناصري : كتاب الاستقصاء، المجلد الثالث، الدار البيضاء ١٩٥٤
ـ الأنصاري : الأنصار : اختصار الأخبار، تحقيق ا ليفي ـ بروفنسال، مجلة ١٢ (١٩٣١)، ص ١٤٥ ـ ١٧٦
ـ البيان : ابن عذاري : البيان المغرب، الجزء الثالث، عني بنشره امبرسيو هويثي ميراندا مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني، تطوان ١٩٦٣
ـ الذخيرة : مؤلف مجهول الاسم : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢
ـ روض القرطاس : ابن أبي زرع : روض القرطاس، تحقيق تورنبرغ، أوباسلا ١٨٤٣
ـ العبر : ابن خلدون : كتاب العبر، ٧ مجلدات، بولاق ١٢٨٤ /٧ ١٨٦٨

مختصرات اسماء المراجع بغير اللغة العربية الواردة في الهوامش

— Ansari : Al-Ansari, **Ikhtisar al-akhbar** (Tr. into Spanish by J. Vallvé Bermejo in **Al-Andalus**, 27 (1962), pp. 398-442.
— Bayan - Ibn Idhari, **Al-Bayan al-mughrib**, Part 3 (Tr. into spanish by Huici in 2 vols. in **Colleccion de Cronicas arabes de la Reconquista**, 2-3, Tetuan 1953-4.
— Brunschvig - R. Brunschvig, **La Berbérie orientale sous les Hafsides**, 2 vols. Paris 1940-7.
— Cagigas - I. de las Cagigas, **Los mudejares**, 2 vols. Madrid 1948-9.
— **ECM** - Ch. E. Dufourcq, **L'Espagne catalane et le Maghrib** aux XIII^{e} et XIV^{e} siècles, Paris 1966.
— **EI$_{1}$** - **The Encyclopaedia of Islam.**
— **EI^{2}** - **The Encyclopaedia of Islam**. New edition.
— **HPIA** - A. Huici Miranda, **Historia politica del imperio almohade,** 2 vols. Tetuan 1956-7.
— **Ibar** - Ibn Khaldun, **K. al-Ibar** (Tr. into French by M.G de Slane, **Histoire des Berbères**, 4 vols. Paris 1925 - 56).
— **Maqçad** - Abd El-Haqq El-Badisi, **El-Maqçad** (Tr. into French by G.S. Colin in **Archives Marocaines**, 26 (1926) Paris).
— **QC** - Ch. - E. Dufourcq, «La question de Ceuta au XIII^{e} siècle», in **Hespéris**, 42 (1955), pp. 67-127.
Qirtas - Ibn Abi Zar, **Rawd al-qirtas** in Spanish translation by A. Huici Mirande, 2vols. Valencia 1964 (2nd edn.).



سبتة كما تبدو من الجانب الغربي من البرزخ
(من مصدر برتغالي ــ القرن السابع عشر)

احتلال البرتغاليين مدينة سبتة المغربية

« ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م »

مقدماته ودوافعه ونتائجه

نبذة عن مملكة البرتغال إلى مطلع القرن الخامس عشر

كانت مقاطعة برتقال في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي تشغل رقعة صغيرة تقع بين نهري مينُه Minho ودويره Douro ولّى عليها الفونس السادس ملك قشتالة وليون — وكانت تتبعه — صهره هنري / هنريق الفارس البرجندي الذي كان قد قدم الى شبه جزيرة ايبرية لمحاربة المرابطين بعد انتصارهم الكبير في وقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م). وقد استطاع أفونسو ابن هنريق — الذي تشير اليه المصادر العربية بابن الريق، أي ابن هنريق — أن يستقل عن مملكة قشتالة وليون، وأن ينصب نفسه ملكا على برتغال. ويؤرخ البرتغاليون بداية استقلال بلادهم بسنة ١١٣٩ م، وفيها أحرز ابن الريق — كما تقول الروايات المسيحية — انتصارا على قوة مرابطية في أوريق Ourique — بالقرب من شنترين — وبادر على الأثر بالمناداة بنفسه ملكا متخذا من مدينة قُلُمريَّه Coimbra عاصمة له، وإلى الجنوب من قلمرية كانت شنترين ولشبونة ومعظم أراضي البرتغال الحالية تشكل جزءا من غرب الأندلس الاسلامي.

وفي عام ٥٤٢ هـ /١١٤٧ م، وبمساعدة اسطول صليبي قادم من شمال اوروبا كان في طريقه الى فلسطين، استولى ابن الريق على لشبونة من أيدي المسلمين، مغتنما فرصة انشغال المرابطين بقيام الموحدين عليهم في المغرب. وبعد أخذ لشبونه، هاجم اسطول ابن الريق اشبيلية وسبتة. وكان للشبونة الاسلامية — كما كان لاشبيلية — تجارة نشطة مع مدينة سبتة، حيث كانت تقيم جالية من التجار الجنويين في القرن الحادي عشر. وقد ساهم الجنويون في استيلاء القشتاليين على اشبيلية عام ١٢٤٨ م، ثم امتد نشاطهم التجاري الى لشبونة وغرب الأندلس. وبالاستيلاء على مدينة شِلْب عام ١٢٤٩ م، بلغت البرتغال حدودها الحالية، وقامت بإجلاء السكان المسلمين عن أراضيها قبل سقوط غرناطة بأكثر من قرنين ومما يذكر أن النظم الديرية العسكرية — كالاسبتارية والداوية ونظامي قلعة رباح وشانت ياقب — قامت بدور كبير في محاربة المسلمين واجلائهم عن غرب الأندلس(١).

وبعد خلافات على الحدود بين البرتغال وقشتالة اتفق بموجب معاهدة صلح عقدت بينهما في بطليوس في مطلع عام ١٢٦٧ م على أن يتنازل ملك قشتالة للبرتغال عن كافة ما كان يدعيه من حقوق في إقليم الغرب Algarve. وكان ملك البرتغال قد قدم العون لقشتالة في قمعها لثورة المسلمين المدجنين باشبيلية عام ١٢٦٤ م(٢).

وقد شارك البرتغاليون بألف فارس في وقعة طريف (٧٤١ هـ /١٣٤٠ م) الى جانب ملك قشتالة ضد قوات المسلمين من المغرب وغرناطة، وكانت وقعة حاسمة، ويقال إن المدفعية استخدمت فيها لأول مرة في أوروبا(٣).

واجتاح البرتغال — كبقية بلدان أوروبا وحوض البحر المتوسط — وباء الطاعون الجارف المعروف بالموت الأسود عام ٨ — ١٣٤٩ م، فهلك بسببه خلق كثير، وكان لذلك آثار اقتصادية واجتماعية خطيرة.

(١) Boxer, C.R., **The Portuguese Seaborne Empire (1415-1825)**, Penguin Books, 1978 p. 4; Atkinson, W.C., **A History of Spain and Portugal**, Penguin Books, 1967, p. 91.

(٢) O' Callaghan, J.F., **A History of Medieval Spain, Cornell U.P. 1975, p. 369.**

(٣) Atkinson, p. 89

وفي عام ١٣٨٤ م، قامت بين قشتالة والبرتغال حرب بسبب مطالبة ملك قشتالة بعرش البرتغال اثر وفاة ملك البرتغال فرناندو دون عقب، واختير جون / خوان أفيس حاميا لعرش البرتغال، فأصبح بطل استقلال بلاده،ومؤسسا لأسرة مالكة جديدة — أسرة أفيس — بعد الانتصار الكبير الذي أحرزه على القشتاليين في معركة الجوباروتا Aljubarrota في منتصف أغسطس عام ١٣٨٥ م. وقد وطدت معركة الجوباروتا استقلال البرتغال وأعلت من شأن جون أفيس الذي نال شهرة ابن الريق مؤسس المملكة. وقد مثل انتصار البرتغاليين في الجوباروتا انتصار الطبقة البرجوازية النامية في لشبونة وأبورتو التي قاوم أفرادها تدخل قشتالة في شؤون البرتغال، بخلاف طبقة أصحاب الأراضي من النبلاء التي انحاز الكثيرون من أفرادها الى جانب قشتالة. وعقدت هدنة طويلة بين قشتالة والبرتغال الى أن انتهت رسميا عام ١٤١١م الحرب بين البلدين، فاستطاع جون أفيس أن يصرف اهتمامه الى أمور أخرى كانت حملة سبتة في مقدمتها(٤). وفي عهد الملك جون الأول (حكم ١٣٨٤ — ١٤٣٣ م) حققت البرتغال وحدة وتركيزا للموارد لم يسبق من قبل، ومع ذلك فإن مملكة البرتغال ظلت مملكة صغيرة لا يحسب لها حساب في الشؤون الأوروربية، ولكن المملكة نعمت بالاستقرار وبشيء من الرخاء، وكانت تحتل موقعا استراتيجيا(٥).

ان معظم أراضي البرتغال في أواخر القرون الوسطى كانت بورا غير مفلوحة بعد اجلاء سكانها المسلمين. وكان سكان البلاد لا يتجاوزون المليون نسمة، معظمهم من الفلاحين الذين يزرعون الحبوب وينتجون زيت الزيتون والنبيد، بينما كان سكان الساحل يزاولون صيد الأسماك واستخراج الملح. وكان الفقر يسود المناطق الداخلية والجبلية حيث المساكن في معظمها أكواخ، واليها كان يشير المؤرخ البرتغالي المعاصر دي زورارا عند حديثه عن دهشة الغزاة البرتغاليين وانبهارهم لما عاينوه من منازل المسلمين ورفاهيتها عند استيلائهم على سبتة، إذ قال «إن مساكننا الوضيعة تبدو كأحواش الخنازير بالمقارنة بها».

(٤) Lomax, D.W., **The Reconquest of Spain**, New York 1978, p. 167. O'Collaghan, pp. 532 - 3

(٥) Payne, S.G., **A History of Spain and Portugal**, Vol. I., Univ. of Wisconsin .Press 1976, p. 191.

وكان الاقتصاد البرتغالي في الأرياف يقوم على المقايضة، ولم تضرب عملة ذهبية بالبرتغال ما بين عام ١٣٨٥ و١٤٣٥م، وكانت العملة المتداولة في معظمها من النحاس(٦).

تردِّي العلاقات بين المغرب وغرناطة قبيل سقوط سبتة :

بعد وفاة السلطان المريني أبي فارس (٧٧٤ هـ /١٣٧٢ م)، أخذ سلطان غرناطة محمد الخامس في تعزيز نفوذه في المغرب الأقصى، فاستولى في سنة ١٣٧٤ م على جبل طارق من أيدي المرينيين. ولما رفض سلطان المغرب الصغير السن أبو زيان التنازل عن مدينة سبتة لسلطان غرناطة، بعث هذا الى المغرب بأميرين من بني مرين كانا لاجئين في غرناطة ويطالبان بعرش المغرب وأمدهما بالعون فاستوليا على شمال المغرب، وحاصرا مدينة فاس مما أدى الى خلع أبي زيان. وأصبح أحد الأميرين ــ أبو العباس أحمد المستنصر ــ سلطانا في فاس سنة ١٣٧٤ م، وأصبح الأمير الآخر ــ عبد الرحمن بن تفلوسين ــ واليا على مراكش. وقد أذعن سلطان فاس الجديد أبو العباس لطلب سلطان غرناطة، وتنازل له عن مدينة سبتة(٧).

وبعد وفاة السلطان أبي العباس (٧٩٦ هـ /١٣٩٣ م)، مكنت المنازعات على العرش في فاس ملك غرناطة ــ يعضده في ذلك صاحب قشتالة ــ من إبقاء المغرب في حالة من الفوضى ــ بمساندته المطالبين بالعرش ــ وذلك لكي يحقق طموحاته التوسعية على حساب المغرب. ورد السلطان المريني أبو فارس على ذلك بالسماح لغزاة البحر المغاربة بمهاجمة المراكب الاسبانية والأندلسية. وثأرا لذلك، قام صاحب قشتالة هنري الثالث ــ مغتنما فرصة انشغال السلطان المريني بمحاصرة تلمسان ــ بمهاجمة مدينة تطوان، فدمرها وفتك بنصف سكانها واسترق الباقين، مما أثار في المغرب موجة من الحماس الديني والوطني أدى الى دحر القشتاليين. كما أن البرتغاليين استفادوا كذلك من متاعب المغرب. ففي سنة

(٦) Boxer, pp. 4-5, 13.

(٧) Abun-Nasr, J.M., **A History of the Maghrib**, Cambridge U.P. 1975, p. 133.

٨١٤ هـ/١ ــ ١٤١٢ م، قامت في المغرب حرب أهلية وتعرضت مدينة فاس للحصار ثلاث مرات في سنة واحدة. ولما تمكن سلطان فاس من السيطرة على أراضيه وانسحب القائم عليه في مدينة سبتة الى غرناطة آخذا معه أسطول سبتة العتيد، أصبحت مدينة سبتة ــ دون أسطول يحميها ــ عرضة لهجوم البرتغاليين عليها(٨).

مدينة سبتة قبيل العدوان البرتغالي عليها :

تتحكم مدينة سبتة بالملاحة في مضيق جبل طارق، وظلت ــ بحكم ضيق المجاز وصلتها الوثيقة بالأندلس ــ أندلسية الطابع. وقد غصت بالنازحين من الأندلس ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، حينما أخذت قواعد المسلمين في الأندلس ــ كقرطبة وإشبلية ــ تتهاوى في يدي قشتالة وأرجون.

واشتهرت مدينة سبتة بالتجارة برا وبحرا، وكان يقصدها تجار المدن الايطالية ــ وبخاصة تجار جنوة ــ حيث كانت لهم فنادق فيها. كما كانت سبتة بداية لطرق القوافل المؤدية الى غانة والسودان الغربي.

واشتهر أهل سبتة بركوب البحر وإنشاء المراكب، وكانت بالمدينة دار صناعة لإنشاء السفن، كما كانت القاعدة الرئيسية لأسطول الموحدين. وكان لرماة سبتة شهرة الأغزاز من التركمان.

كان من بين النازحين عن مدينة سبتة بعد سقوطها في أيدي البرتغاليين عام ١٤١٥ م الفقيه محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري السبتي الدار والنشأة والمولد، ووضع كتابا ــ بعد سبع سنوات من سقوط المدينة ــ أسماه (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار)، وفيه يستعرض معالم سبتة قبيل

(٨) Livermore, H.V., **A New History of Portugal,** Cambridge U.P. 1976, p. 108.
جوليان، شارل أندري : تاريخ افريقيا الشمالية تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس ١٩٧٨، ص ٢٤٩.

سقوطها، فيذكر مقابرها ومساجدها، وخزائنها العلمية ومحارسها، وأزقتها وحماماتها، وحوانيتها وفنادقها، وديار الاشراف فيها، ومطاميرها وطواحينها وأرباضها وأبوابها، ومراميها ومقاصرها، ومراسيها ومصايدها. كما يتحدث عن أحواز سبتة، فيذكر وفرة مياهها وغلاتها وفواكهها على مدار فصول السنة. ويتبين من هذا الثبت المفصل أن مدينة سبتة كانت ــ حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ــ مدينة تنعم بالرخاء والازدهار والعمران، وأن سقوطها في أيدي البرتغاليين كان كارثة حلت بالمدينة وأهلها، اذ تعرضت المدينة لأعمال النهب والسلب والتقتيل، ونزح عنها معظم سكانها.

يذكر الأنصاري أنه كان بسبتة ألف مسجد، وان عدد الخزائن العلمية (المكتبات) بها اثنتان وستون خزانة، وأن عدد الروابط والزوايا سبع وأربعون ما بين زاوية ورابطة. أما محارس المدينة فعددها ثمانية عشر محرسا تمتد الى اثني عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحرين(٩).

وكان بسبتة اثنان وعشرون حمّاما، ومائة وأربعة وسبعون سوقا. أما المنجرات المعدة لعمل القسي، فعددها أربعون منجرة. ولما كانت سبتة ميناء تجاريا يقصده التجار الأغراب، فإنها احتوت على نيف وثلاثمائة فندق لخزن الحبوب وإيواء المسافرين(١٠).

أما ديار الاشراف ــ حيث يقيم المشرفون الماليون ــ فعددها أربعة : دار الاشراف على عمال الديوان أمام فنادى النصارى ــ وفنادقهم سبعة ــ ودار الاشراف لشد الأمتعة وحلها، ودار الاشراف على البناء والنجارة، ودار الاشراف على سكة المسلمين(١١).

(٩) الأنصاري، محمد بن القاسم : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار، الرباط ١٩٨٣، ص ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢.
(١٠) نفسه، ص ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨.
(١١) نفسه، ص ٤١ ــ ٤٢.

وكان بسبتة من المطامير لخزن الحبوب أربعون الفا يمكث الزرع فيها «الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير لطيب البقعة واعتدال الهواء، ولكونها جبلية، فسبتة في ذلك شبيهة بقاعدة طليطلة من بر الأندلس»(١٢).

وما عني أهل سبتة بالرمي لأغراض الدفاع عن ثغرهم، فقد كان بسبتة من المرامي ــ المعبر عنها بالجلسات ــ أربعة وأربعون مرمى للرماة «اذ الرمي طبع لأهل سبتة طبعوا عليه، فلا تلفي منهم شريفا ولا مشروفا، ولا كبيرا ولا صغيرا، إلّا وله بصر بالرمي وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة، وهو من جملة الأشياء التي تميزوا بها»(١٣).

وكان الشريف الادريسي ــ وهو من أبناء سبتة ــ قد نوّه بمصائد الحوت بسبتة، فذكر أنه يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع، ويصاد بها السمك المسمى التن الكثير، كما يصاد ببحرها المرجان. وبسبتة ــ كما يقول الادريسي ــ سوق لتفصيل المرجان وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز به الى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيرا. وبعد الادريسي بنحو ثلاثة قرون، يذكر الأنصاري أن بسبتة من المصايد مائتين وتسعة وتسعين مصيدا مفترقة(١٤).

واشتهرت أحواز سبتة بوفرة مياهها وغلاتها، وبخاصة في قرية بليونش الى الجنوب من سبتة. ويذكر الأنصاري بليونش ــ ويرسمها بَنْيونش ــ فيتحدث عن كثرة وتعدد فواكهها الصيفية والشتوية والخريفية، بحيث توسق منها الأجفان وتسير الى المغرب وبلاد الأندلس(١٥). كما تكثر في منطقة سبتة الغابات وبها ضروب الشجر، كالأرز والبلوط، مما يعود نفعه على ثغر سبتة، ويستعان به على إنشاء المراكب وما يرجع الى الأمور الجهادية(١٦).

(١٢) نفسه، ص ٤٢.
(١٣) نفسه، ص ٤٧.
(١٤) الادريسي، محمد : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية (مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، الجزائر ١٩٥٧، ص ١٠٨.
(١٥) الأنصاري، ص ٥٣.
(١٦) نفسه، ص ٥٦ ــ ٥٧.

ويختتم الأنصاري كتابه قائلا : «فانظر ما كان عليه هذا الثغر الشامخ وما أصيب به المسلمون... والله أسأل أن يمن بارتجاعه ويعيده كما كان»(١٧).

دوافع العدوان البرتغالي على مدينة سبتة

أ ـــ دوافع دينية صليبية :

يتفق الباحثون على أن العامل الديني الصليبي كان في مقدمة الدوافع للحملة التي جهزها البرتغاليون ضد مدينة سبتة. ان حملة سبتة كانت استجابة للروح الصليبية التي عمت شبه جزيرة ايبرية مع تقدم حركة «الاسترداد» ونجاحها(١٨). ولعل ما أوحى بالهجوم على سبتة في المقام الأول الحماس الصليبي لضرب المسلمين في المغرب ضربة قاضية(١٩).

وقد عمل ملك البرتغال جون الأول وزوجته الانجليزية فليبا لانكستر وأبناؤهما الخمسة جاهدين على استمرار الحرب الصليبية التي بدا وكأن جذوتها أخذت تخبو بعد أن تم اجلاء المسلمين عن اراضي البرتغال ذاتها، فشرع في حملة سبتة ـــ أولى حملات البرتغال في الخارج ـــ وهي دليل على أن حرب «الاسترداد» والفتوح التوسعية كانا في أساسهما حربا صليبية مقدسة(٢٠).

وينسب الى الأمير هنري قوله لوالده وهو يحاول إقناعه بالموافقة على حملة سبتة إنه لا وجه للمقارنة بين عداء قشتالة المسيحية للبرتغال وبين عدائها «للكفار

(١٧) نفسه، ص ٥٧.
(١٨) جوليان ص ٢٤٩.
(١٩) Boxer, p. 18 ومما يذكر أن المبشر الميورقي رامون لل Lull قدم الى مؤتمير فيين Vienne بفرنسا في عام ١٢١٠ م ـــ أي قبل اكثر من قرن من غزو البرتغاليين سبتة ـــ اقتراحا بتشكيل منظمة تضم كافة الفرسان النصارى وعليها أن تعمل ـــ دون انقطاع ـــ لاحتلال الأراضي المقدسة (فلسطين) ويكون أول مهامها «احتلال سبتة والقسطنطينية لاتخاذهما قاعدتين لشن الهجمات ضد المسلمين». يُنظر :
E. Allison Peers, **Ramon Lull : A Biography,** London 1929, p. 351.
(٢٠) Atkinson, p. 98.

الذين هم أعداء طبيعيون لنا»(٢١). ولما استشار الملك جون الأول أحد كبار مستشاريه بشأن الحملة المقترحة ضد سبتة أجابه قائلا : «يبدو لي أن هذه الخطة ليست من بنات أفكارك، وانما هي بوحي من الله»(٢٢).

كان الأمير هنري ــ بوصفه رئيسا لنظام المسيح الدَيري العسكري Order of Christ وريثا لتقليد صليبي طويل. ولما لم يكن قد بقي ما يمكن تحقيقه في هذا المجال في البرتغال ذاتها بعد اجلاء المسلمين عن أراضيها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، فان هنري أراد مواصلة هذا التقليد الصليبي في ديار الاسلام في المغرب، لمحاربتهم بل والعمل على تنصيرهم. وقبيل إقلاع سفن الأسطول صوب سبتة، ماتت الملكة فليبا، وكان ها دور كبير في إذكاء الروح الصليبية في نفوس أبنائها وفي صفوف المحاربين(٢٣).

وكان البرتغاليون يحسبون أن ثمة الى الجنوب من المغرب شعوبا وثنية يمكنهم تنصيرها والتحالف معها ضد المسلمين في المغرب(٢٤).

ان البرتغاليين كانوا صليبيين قبل أن يصبحوا ملاحين يجوبون البحار، واحتفظت البرتغال بالروح الصليبية حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي بعد أن كانت غيرها من الدول قد تخلت عن الفكرة الصليبية واستعاضت عنها بالسعي لتحقيق مآرب مادية صرفة. وعلى ذلك، فإن من غير المدهش أن يكون السبب الرئيسي للهجوم على سبتة سببا صليبيا. واستمر تغلغل البرتغاليين في المغرب على مدى قرن من الزمن بعد استيلائهم على سبتة للسبب ذاته وبالفكرة نفسها(٢٥).

ويرى المؤرخ المغربي عبد الله العروي أن الدافع الديني يبدو أنه كان الدافع الحاسم في سياسة دول شبه جزيرة ايبرية تجاه شمال افريقيا، وأنه ينبغي النظر الى

(٢١) Rézette, R., **The Spanish Enclaves in Morocco,** Paris, 1976, p. 30.

(٢٢) Bell, C., **Portugal and the Quest for the Indies,** London 1974, p. 35.

(٢٣) O'Callaghan, pp. 556, 547.

(٢٤) Lomax, p. 162.

(٢٥) Prestage, E., «Portugnese Expansion Overscas, Its. Causes and Results», in **Chapters in Angolo-Portuguese Relations,** Watford 1935, pp. 173-4.

الهجوم الايبري على المغرب على أنه في أساسه حمله صليبية ورد فعل على إخفاق الحملات الصليبية في المشرق وعلى الخطر العثماني الجديد الذي كان يهدد شرق أوروبا(٢٦).

ان من الخطأ ـــ كما يرى الباحث بين Payne ـــ أن يتساءل المرء عما اذا كان الدافع للفاتحين البرتغاليين والاسبان الجشع والمكسب المادي أو الحمية الدينية. ففي الايديولوجية التوسعية الصليبية لسكان شبه جزيرة ايبرية كان العاملان متواكبين ومتلازمين. «ان الحرب الصليبية والربح كان يُنظر اليهما على أنهما شيئان يكمل الواحد منهما الآخر»(٢٧).

وبتجديد الحملات الصليبية القديمة ضد المسلمين، كان ملك البرتغال جون الأول يأمل في أن يحوز رضا البابوية وأوربا وتأييدهما. ان مجمع كونستانس الذي دعي الى الانعقاد في شهر نوفمبر عام ١٤١٤ م كان ينتظر أن يضع حدا للانقسام البابوي وينهيه، ورأى البرتغاليون انهم اذا شنوا حملة صليبية أمكنهم أن يتوقعوا رضا البابا الجديد والتوصل الى سلم مع قشتالة. وقد جاء الاقتراح بالقيام بحملة ضد سبتة من جانب رئيس أساقفة لشبونة وممثل جون الأول في المفاوضات مع قشتالة في كونستانس(٢٨). وجدير بالذكر أن البابا أصدر عدة مراسيم يأذن فيها لملك البرتغال بمهاجمة المسلمين وإخضاعهم لحكمه، وبأخذ أموالهم وأراضيهم، وباسترقاقهم، وبأن تؤول أموالهم وأراضيهم لملك البرتغال وذريته من بعده(٢٩).

ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي، إستهوت خيال الأوروبيين فكرة بريستر جون الملك المسيحي لبلاد مجهولة في آسيا، ثم بدا للبرتغاليين أنه ملك إثيوبيا النصراني الذي تطلعوا الى الوصول اليه والتحالف معه لشنّ هجوم على المسلمين من عدة جهات(٣٠).

(٢٦) Laroui, A., **The History of the Maghrib**, Princton U.P. 1977, p. 235.
(٢٧) Payne, pp. 188-9.
(٢٨) Livermore, p. 108.
(٢٩) Boxer, pp. 20-21.
(٣٠) O'Callaghan, p. 556. Livermore, p. 111.

ب ــ دوافع اقتصادية :

لا تقل عن الدوافع الصليبية لغزو البرتغاليين سبتة الدوافع الاقتصادية كالظفر بالأسلاب والغنائم، وتلبية رغبات الطبقات البرجوازية النامية في مدن البرتغال، والحصول على ذهب السودان الغربي عن طريق سبتة، فضلا عن ثروات المغرب ذاته، وتعزيز تجارة البرتغال في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت التجارة وقفا على تجار المدن الايطالية وحكرا لهم.

ان بعض المؤرخين المحدثين لم يعودوا يكتفون بالتفسير التقليدي لأخذ سبتة بأنه أوحى به الحماس الصليبي والرغبة في تحقيق الأمجاد والبطولات الحربية. ويرى هؤلاء المؤرخون ان الدوافع الاقتصادية والاستراتيجية لا بد وأنه كان لها دور كبير في أذهان مخططي الحملة. فسبتة ــ كما يصفها الأنصاري ــ كانت مدينة تجارية مزدهرة، وهي منفذ رئيسي لصادرات المغرب وأحد المراكز التي تنتهي اليها تجارة ذهب السودان الغربي عبر الصحراء. ان الدافع للحصول على الذهب كان دافعا مهما، اذ كان على الذهب طلب كبير خلال القرنين الاخيرين من القرون الوسطى في غرب أوروبا. فخلال هذه الفترة ضربت العملة الذهبية في بلد تلو آخر على غرار الفلورين الذهبي بفلورنسة الذي ضرب عام ١٢٥٢ م، والدوقة الذهبية التي ضربت في البندقية في حدود عام ١٢٨٠ م. ولم يكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة بها منذ عام ١٣٨٣ م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في هذا الوضع(٣١).

ان أسرة أفيس جاءت الى الحكم سنة ١٣٨٥ بفضل مساندة الطبقة البرجوازية من تجار المدن، وهي طبقة احتلت مصالحها التجارية المقام الأول في سياسة المملكة. وكان تجار لشبونة وأبورتو يطمعون في تجارة البحر المتوسط المجزية التي كانت تحتكرها جمهوريتا البندقية وجنوة وتجار المسلمين، بما فيهم تجار سبتة(٣٢).

(٣١) Boxer, pp. 18-19.

(٣٢) جوليان، ص ٢٤٩ Bell, p. 34.

وكان البرتغاليون يطمعون كذلك في ثروات سبتة والمغرب الاقتصادية، كمصائد الأسماك في مياه سبتة وقُبالة سواحل المغرب. وكانت تُحاك في فاس أقمشة تصدر عن طريق سبتة، وكان عليها إقبال في جنوب أوروبا. وكانت سبتة منفذا رئيسيا لصادرات المغرب من الحبوب التي كانت البرتغال كثيرا ما تفتقر اليها(٣٣).

كان الداعي الرئيسي لحملة سبتة خوان افونسو Jono Afonso المشرف الملكي على المالية والممثل الرئيسي للطبقة البرجوازية في الحكومة. ان الأزمة الطويلة التي كانت تعاني البرتغال منها قبيل حملة سبتة نتيجة لحروبها مع قشتالة أدت الى نقصان كبير في موارد الدولة، مما حدا بالملك جون الأول الى العبث بالعملة وتخفيض قيمتها لتسديد ديونه(٣٤).

ان الهدف الرئيسي للتوسع البرتغالي في القرن الخامس عشر الميلادي لم يكن الرغبة في السيطرة على أراض عبر المحيط بل السيطرة على ساحل المغرب. ففي المغرب ذاته كانت تتوفر العديد من السلع المطلوبة كالقمح والماشية في الشمال، والسكر وبعض المنسوجات وكذلك الأسماك والجلود والشمع والعسل. فحبوب المغرب ستساعد على سد ما كانت تعاني منه البرتغال من نقص في انتاجها لها، بالاضافة الى جاذبية تجارة ذهب السودان(٣٥).

ويرى باربر Barbour أن ما دفع الى القيام بحملة سبتة الطموح من جهة، والرغبة من جهة أخرى في ايجاد منفذ للمغامرين الذين أصبحوا عاطلين عن العمل بعد أن تم إبرام السلم مع مملكة قشتالة(٣٦).

ج ــ دوافع سياسية :

كانت البرتغال طوال القرن الخامس عشر مملكة متحدة خالية تقريبا من الحروب الأهلية في الوقت الذي كانت فيه بلدان غرب أوروبا الأخرى تهزها في

(٣٣) Bell, p. 34.
(٣٤) Krueger, H., «Genoese Trade..., in **Speculum,** III (1933), p. 382.
(٣٥) Payne, p. 192.
(٣٦) .Barbour, N., **Morocco,** London 1965, p. 98.

معظم ذلك القرن الحروب الخارجية أو الأهلية، كحرب المائة سنة بين انجلترا وفرنسا، وحروب الوردتين بانجلترا، أو أنها كانت مشغولة بخطر زحف الأتراك العثمانيين في البلقان وفي الشرق الأدنى. وفي شبه جزيرة ايبرية، كانت قشتالة وأرجون تمران بفترة من القلاقل أقرب ما تكون الى الفوضى المدمرة، قبل تولي فرديناند وازابيلا الحكم. وقد حالت هذه الأوضاع ـــ الى حد كبير ـــ دون منافسة قشتالة للبرتغاليين منافسة فعالة، وهو ما كان سيحدث لولا تلك القلاقل(٣٧).

وكانت البرتغال حريصة على أن لا تقع سبتة في أيدي منافسيها، اذ كانت سبتة قبل ذلك قد اجتذبت أنظار قشتالة وحتى جنوة، التي حاول تجارها الاستيلاء ـــ عبثا ـــ على سبتة عام ٦٣٣ هـ(٣٨). ان مبادرة ملك البرتغال ومستشاريه الى اتخاذ القرار الخاص بتجهيز حملة لأخذ سبتة كان ردا على بوادر اهتمامات قشتالة، كالغارة على تطوان سنة ١٤٠٠ م وقبولها تبعية جزر الكناري لها(٣٩).

انتهت الهدنة بين البرتغال وقشتالة وأبرم سلم بين المملكتين سنة ١٤١١ م. وكان على عرش قشتالة آنذاك الطفل خوان الثاني تحت وصاية عمه فرديناند الذي كان يصبو الى الحصول على عرش أرجون لنفسه، مما أشغله عن الاهتمام بقضايا غرناطة والبرتغال. فقرر ملك البرتغال جون الأول ـــ وقد أمن خطر قشتالة ـــ الشروع في حملة سبتة(٤٠).

د ـــ القرصنة :

يصف الكُتّاب الانجليز والفرنسيون ـــ دون البرتغاليين ـــ الهجوم البرتغالي على سبتة سنة ١٤١٥ م بأنه كان «ثأرا لأعمال القرصنة المغربية». والواقع أنه مع أن

(٣٧) Boxer, p. 18.

(٣٨) Bell, p. 34. ابن عذاري، أبو العباس أحمد : البيان المغرب، القسم الثالث، تطوان، ١٩٦٠، ص ٦ ـــ ٢٤٧.

(٣٩) O'Callaghan, p. 547.

(٤٠) Livermore, **Portugal**, Edinburgh U.P. 1976, p. 70.

الأندلسيين الذين طردوا من بلادهم كانوا يغيرون على سواحل اسبانيا وسفنها، فإنه يبدو بأن التجارة البرتغالية لم تتعرض لأذى يذكر. وقد عارض ملك البرتغال بادىء الأمر فكرة الهجوم على سبتة، بحجة أن الهجوم سوف يؤدي حتما الى قيام المغاربة بالثأر من السفن البرتغالية في مضيق جبل طارق، مما سيعرض للخطر تجارة البرتغاليين المجزية بزيت الزيتون والنبيذ مع موانىء البحر المتوسط. وكان الملك من جانبه يحبذ القيام بهجوم مشترك مع القشتاليين ضد مملكة غرناطة أملا في أن تستحوذ البرتغال على أراض جديدة في شبه جزيرة ايبرية(٤١).

وقد أخذ المخططون لحملة سبتة في حسبانهم أن تصبح سبتة بعد استيلاء البرتغاليين عليها مأوى تلجأ اليه السفن المسيحية الفارة من غزاة البحر المسلمين من شمال افريقيا، كما يمكن اتخاذها نقطة انطلاق للسفن البرتغالية المهاجمة للسفن العربية. وفي الواقع، فانه بعد أخذ سبتة، أنشأ الوالي البرتغالي بسبتة سفنا كانت تكمن لسفن المسلمين التي تتردد على مينائي جبل طارق ومالقة(٤٢).

ان سيطرة الايطاليين والايبريين على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط ألحقت ضررا كبيرا بتجارة المغرب واقتصاده. ولما عجز المغاربة عن حماية تجارتهم لجأوا الى القرصنة، وهي شكل من أشكال الحرب، تماما كما فعل الانجليز بعد ذلك بقرنين في صراعهم مع الاسبان(٤٣).

وبعد استيلاء البرتغاليين على سبتة ــ التي فتحت باب البحر المتوسط على مصراعيه ــ لم تلبث سفنهم أن أصبحت من حيث العدد والنشاط كسفن البسكيين في مياهه. فأصبحت مراكب البرتغاليين تقدم خدماتها الملاحية، كما أصبح قرصان البرتغال يفرضون شروطهم. ففي أكتوبر سنة ١٥٠١ م، أسروا مركبا جنويا قرب سواحل المغرب، وكانوا اذا أسروا ركابا مغاربة فرضوا عليهم مبالغ كبيرة لافتداء أنفسهم(٤٤).

(٤١) Barbour, pp. 97-8.

(٤٢) Bell, p. 34. Livermore, p. 109.

(٤٣) Laroui, p. 234.

(٤٤) Braudel, F. **The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II**, London 1978, p. 608.

هـ ــ أمجاد الفروسية :

تعزو الرواية التقليدية قيام حملة سبتة الى رغبة أبناء ملك البرتغال الثلاثة ــ دوارتي وبدرو وهنري ــ في المشاركة في عمل حربي باسل ما، يؤهلهم لتسلم رتبة الفروسية. وقد وجدوا ضالتهم في الاقتراح الخاص بمهاجمة سبتة، كما أن الفكرة كانت استجابة للمعتقدات الدينية التي ورثوها عن والدتهم فليبا. كانت الحرب في خدمة الله والملك لا تزال العمل المشرف لفارس القرون الوسطى، وبخاصة محاربة المسلمين. وكان للفرسان أن يتوقعوا التكريم والانعامات من الملك جزاء بلائهم في الحرب، فضلا عن المكافآت المالية والاقطاعية(٤٥). ان الفارس من النبلاء الذي كان يحرمه القانون من المبارزة في بلده كان يتوجه الى الخارج ــ الى غرناطة أو إلى سبتة(٤٦).

الرواية البرتغالية عن حملة سبتة :

ان تواريخ جوميس إيانيش دي أزورارا Gomes Eannes de Azurara وبخاصة تاريخه عن الملك جون / خوان الأول ــ تروي قصة أخذ البرتغاليين مدينة سبتة، بعد عشر سنوات من سقوط المدينة، بأسلوب حكايات الفروسية فتقول :

حاول ابنا الملك جون الأول إقناع والدهما بالمشاركة في حملة باهرة لكي يتسنى لهما أن يرسّما فارسين، إلّا أن الملك عارض مشروع الحملة بحجة تكاليفها وما تحتاج اليه من رجال وعتاد. كما أنه تردد في تجريد مملكته من الجند طالما بقي السلم مع قشتالة غير ثابت. كما أشار الملك الى أن المغاربة سيذكرون دوما بكل مرارة «هزيمتهم على أيدينا، وسيأخذون في مهاجمة سفننا قرب ساحل اقليم الغرب [بجنوب البرتغال]». كما قال ان البرتغاليين سوف يفقدون كل أمل في إرسال مراكبهم وبضائعهم الى مدن حوض البحر المتوسط، وذكّر بالمصير الذي سيؤول اليه أسراهم في أيدي المغاربة.

(٤٥) O'Callaghan, p. 547. Bell, p. 32.

(٤٦) Hillgarth, J.N., **The Spanish Kingdoms (1410-1516), Vol, II, Oxford, U.P. 1978, p. 62.**

وأخيرا أقنع هنري والده بأنه يقلل من قيمة القوات البرتغالية، وبأنه لا وجه للمقارنة بين قشتالة المسيحية وبين «الكفار الذين هم أعداء طبيعيون لنا». وأضاف بأن تسهيل استيلاء قشتالة على غرناطة من شأنه أن يعود بالفائدة على البرتغال، اذ سينشغل القشتاليون بمشاكل غرناطة، مما سيجعل البرتغال تنعم بالسلام زمنا طويلا.

وكما هو الحال في كافة الحروب «الجيدة»، بدأت حملة سبتة بإيفاد رسل للاستطلاع وجمع المعلومات حول المدينة وتحصيناتها. وجالت بخاطر الملك خطة أشار اليها المؤرخون بانها «حيلة بارعة». فقد سلح سفينة لارسالها الى ملكة صقلية ليعرض عليها الزواج من ابنه بدرو. ولما كانت الملكة قد أعربت عن ميلها للزواج من دوارتي / إدوارد وارث العرش، فان ملك البرتغال كان لا يشك في أنها سترفض عرضه. وبذلك أتيحت لرسله فرصة الجواز بمدينة سبتة ومعاينة ما يريدون.

ولكي يبرر الاستعدادات الحربية الجارية وتجهيزه الأسطول، قرر الملك جون «أن يتحدى دوق هولندا وأن يهدده بالحرب إن هو لم يوقف الأضرار والسرقات التي كان رعاياه يوقعونها بالتجار البرتغاليين المارين بمضائق بلاده». وبالطبع فإن الدوق ــ وكان على علم مسبق بكل ذلك ــ تظاهر بتصديق التهديد. ثم بعث الملك جون برسله لاستئجار السفن من غليسية وبسكاي، وحتى من انجلترا وألمانيا. كما أن الفرسان الانجليز والفرنسيين عرضوا عليه خدماتهم.

توقف الأسطول ــ وقوامه ٢٠٠ سفينة وخمسون ألف رجل ــ في مرسى الجزيرة الخضراء بعد أن قدم الملك جون كافة الضمانات لملك قشتالة. وفي البداية صادفت الحملة بعض التعثر، اذ هبت ضبابة كثيفة جعلت الاسطول يتحول الى ناحية مالقة بسبب التيارات، ووقعت بعض الاشتباكات مع مسلمي غرناطة الذين حسبوا أن الهجوم سوف يقع على أراضيهم.

كما أن الطاعون الوافد من لشبونة تفشّى بين الجند في عدة سفن. ومع ذلك، فإن الأسطول توجه آخر الأمر الى سبتة. ونزل الجنود الى البر ودارت معركة عنيفة، وكان يقود الجند الأميران إدوارد وهنري.

وخاطب صالح بن صالح «صاحب سبتة» ــ كما تذكر التواريخ ــ البرتغاليين بالعبارات التالية : «اننا لا نخشى هجوم النصارى علينا، فهم ليسوا كثيرين عددا، وبوسعنا قتالهم، ومن يدري؟ فلعلهم يتيحون الفرصة لنا لنظفر بنصر كبير... ومن الممكن أن يقع أسطولهم في أيدينا. وقد نستعمل أوانيهم الذهبية والفضية في أعراس أبنائنا... ان الأسطول قسمان، ونعتقد أنهم سينزلون اليوم الى البر، وسوف نذبحهم على الشواطىء، اذ إن أكثرهم مثقلون بالدروع لا يقوون على الحركة إلّا ببطء وصعوبة، بينما نحن خفاف ونستطيع التحرك بسرعة ومهاجمتهم. واذا سقطوا على الأرض تعذر عليهم النهوض. وأنّى لهم ذلك، وهم كجلاميد الصخر وزنا».

ولم يكن بالأمر الهيِّن الهجوم على أسوار سبتة الثلاثة المتتالية، والقتال في أزقّة المدينة وشوارعها الضيقة التي يسهل الدفاع عنها. وقد دامت المعركة خمس ساعات دون توقف. وقام المغاربة ــ وهم أكثر عددا وأقل سلاحا ــ بالهجوم على المغيرين وحتى بدون سلاح، ودفنوا كنوزهم في الآبار، أما القتل والنهب فكانا بدون رحمة أو شفقة.

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر اغسطس، قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبتة الى كنيسة كاثوليكية، وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر في يوم الأحد التالي (٢٥ /٨ /١٤١٥ م). وجرى في ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة ــ حسب رغبتهم ــ فرسانا.

ووليَّ على المدينة الكونت بدور دي مينزيس Pedro de Menezes وتركت معه حامية قوامها ٢٧٠٠ رجل وسفينتان لحراسة المضيق.

وبعد ذلك بثلاث سنوات، قام «أهل فاس وأهل غرناطة وملك مراكش وملك تونس وملك بجاية، ومعهم الأسلحة والمدافع الكثيرة» بمحاصرة سبتة برًا وبحرا. وقد قدرت التواريخ البرتغالية عددهم بمائة الف رجل، بمبالغة تتفق مع الأسلوب الملحمي الذي دُوِّنت به تلك التواريخ. وهرع الأمير هنري الى نجدة المدينة بأسطول جديد، وبعد «أن أوقع مذابح بالمسلمين، حرَّر المدينة وعاد ظافرا الى البرتغال»، وكان غاضبا لأن «الظروف لم تسمح له بأخذ مدينة جبل طارق كما كان قد خطط»(٧٤).

(٤٧) Rézette, R., **The Spanish Enclaves in Morocco,** Paris 1976, pp. 29-33.

لا تتوفر لدينا في المصادر العربية تفاصيل كافية عن حملة سبتة، فيما عدا نتف أوردها صاحب (كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)، الذي ذكر بان استيلاء البرتغاليين على سبتة كان بعد حصار طويل للمدينة، وأنه كان على أثر خديعة لجأوا اليها. فقد نقل عن صاحب (نشر المثاني) قوله : «إن النصاري جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون ان بها سلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين، وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ٨١٨. وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمن واستولوا على البلد... وسمعت من بعضهم أن الذي جرَّأ النصارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبذلوا له خراجا معلوما في كل سنة، فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين، ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها»، ويضيف صاحب (نشر المثاني) بأن أهل سبتة جاءوا الى سلطان فاس مستصخرين «وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالا ونساء وولدانا، [إلا أن السلطان] ردَّهم الى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم، حتى تفرقوا في البلاد». وما إن تمَّ للبرتغاليين الاستيلاء على سبتة حتى قاموا بتحصينها(٤٨). وينقل الناصري عن مؤرخ برتغالي اسمه منويل ما مفاده أن عبد الله بن أحمد ــ المعروف بسيدي عبو ــ اغتصب الملك من أخيه السلطان المريني أبي سعيد

(٤٨) الناصري، أبو العباس أحمد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الرابع، الدار البيضاء ١٩٥٥، ص ٩٢ ــ ٩٣.
وبعد مائة سنة ذكر الحسن الوزان أن البرتغاليين بعد احتلالهم سبتة مكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد [المريني] الذي كان ملكا على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون، فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين.. وهلك سبعة من أبنائه... وذلك عام ٨٢٤ هـ». (الحسن الوزان : وصف افريقيا، الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط ١٩٨٠، ص ٢٤٦).

عثمان، ولكنه «تكدّر عيشه بذهاب سبتة... وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم»(٤٩).

ويذكر أن أهل سبتة توجهوا الى فاس ملتمسين مساعدة السلطان عبد الحق لدحر المغيرين البرتغاليين، وأرفقوا التماسهم بهذه الأبيات المؤثرة على ضعفها :

هتك النصارى علينا حرمةَ سبتة غدرا بنقض مواثق وعهود
غدرونا فجر عروبة بصنادق حطّت صناديد صرعة كقرود
ألفان في ألفين من أبطالهم عظماء أجسام طوال قدود
فقصدنا بابك ضارعين، لبوسنا أخمار من شعر ونعل سود
فعسناك تجبر صدع قوم خانهم دهر كسا للكل ثوب يهود

وقد صرح السلطان بضعفه عن نصرتهم كما يتبين من الجواب الذي أمر كاتبه المنجم بتحريره ردا على استصراخهم، وفي الجواب أبيات ضعيفة منها البيت التالي :

فلقد عجزت عن الدفاع كمن مضى من عز آباء وأسمى جدود

إلّا أن البرتغاليين لم يهدأ لهم بال ولا طاب لهم مقام منذ أن وطئت أقدامهم أرض سبتة، اذ تعرضوا لهجمات مستمرة من جانب رجال القبائل من المناطق المجاورة لسبتة والمتطوعين المجاهدين من أنحاء المغرب، وبخاصة مدينة فاس(٥٠). وتقول الرواية البرتغالية إن بدرو دي منيزيس أول ولاة البرتغال على سبتة كان يرتدي درعه باستمرار على مدى ستة عشر عاما لكي يكون على أهبة في حالة وقوع هجوم من جانب المسلمين، وكانت هجماتهم لا تنقطع طوال فترة ولايته (١٤١٥ ــ ١٤٣٧ م)(٥١).

(٤٩) نفسه، ص ٩٤.
(٥٠) ابن تاويت، محمد : تاريخ سبتة، الدار البيضاء ١٩٨٢، ص ٨ ــ ١٧٩.
(٥١) Rèzette, p. 34.

ان حملة سبتة كانت تحتاج الى المال والسفن والرجال والأسلحة. أما المال فقد تم الحصول عليه من أصحاب المصارف وعن طريق العبث بالعملة. وأما السفن فقد جمعت من كافة موانىء كنتبرية ومنطقة خليج بسكاي(٥٢). وفي خطاب للك انجلترا هنري الخامس بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٤١٤ م يأذن لممثل البرتغال بشراء ٤٠٠ رمح، كما يأذن في خطاب آخر بتاريخ ٢٦ يناير ١٤١٥ م بشراء ٣٥٠ رمح، وبتجنيد عدد من الرجال المسلحين (٥٣).

لم تُجْدِ تحصينات سبتة كما لم يُجْدِ الرماة والمدافعون عنها في وجه القوات البرتغالية الغازية فمع أن أعدداهم كانتب كبيرة إلّا أن أساس نجاح الحملة يكمن في عامل المباغتة الذي هيَّأه تخطيط المغيرين الدقيق لها(٥٤).

ولما وافق ملك البرتغال على قيام الحملة، أصرَّ على مشاركته بنفسه فيها أملا ــ على حد قوله ــ في أن يغفر سفكُه لدماء «الكفار» ما كان قد سفكه من دماء النصارى(٥٥).

ومما يذكر أن صائغا يهوديا من مدينة يابره Evora طالب في سنة ١٤٣٩ م بمكافأة ــ وتسلمها ــ في مقابل الخدمة التي قدمها للاستيلاء على سبتة وفي الحملة الفاشلة ضد طنجة عام ١٤٣٧ م، اذ ادعى بأنه ساهم فيها «بحصانه وسلاحه وبجنديين من المشاة»(٥٦).

ان الثغر fronteira الجديد للبرتغال لم يواجه سوى هجوم واحد ذي بال شنه المغاربة والغرناطيون معا عام ١٤١٩ م، ولكنه فشل بسبب الخلافات في صفوف بني مرين. وفي العام التالي، اغتيل السلطان المرينيُّ أبو سعيد عثمان، وتفاقمت بمقتله الحرب الأهلية بالمغرب(٥٧).

(٥٢) O'Callaghan, p. 547.

(٥٣) Livermore, p. 108.

(٥٤) ليثام Latham، ج. د، «موقع سبتة الاستراتيجي ووسائل دفاعها في أواخر الفترة الاسلامية»، ص I/سطر ٢٧٩ ــ ٢٨٤.

(٥٥) Barbour, p. 98.

(٥٦) Boxer, p. 12.

(٥٧) جوليان، ص ٢٤٩.

النتائج المباشرة لسقوط مدينة سبتة :

وختاما للبحث نوجز فيما يلي النتائج المباشرة التي ترتَّبت على استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة المغربية التي آلت الى اسبانيا منذ عام ١٥٨٠ م، عندما ضمَّ ملك اسبانيا فليب الثاني البرتغال الى مملكته، وما زالت سبتة في أيدي الاسبان الى اليوم.

كانت النتائج المادية لأخذ سبتة مخيبة للآمال، ولم تبد للعيان فوائد مباشرة نتيجة للاستيلاء عليها. إن أخذ سبتة بيِّن أن الاستيلاء على المدينة لم يكن له غير أهمية رمزية، ولم تبذل محاولة لاستغلال احتلالها قبل عام ١٤٣٧ م بحملة طنجة التي باءت بالفشل(٥٨).

ان المدينة ــ وبخاصة مخازن التجار ومتاجرهم ومنازلهم ــ تعرضت لأعمال النهب والسلب من قبل الجند، وذهبت طعمة للنيران محتويات المتاجر والمخازن من التوابل والثياب الرفيعة والسجاجيد الشرقية(٥٩).

أما سكان المدينة فقد قتل الكثيرون منهم، واسترقّ بعضهم، ونزح عن المدينة المنكوبة من استطاع من ساكنيها. وبعد يومين من سقوط المدينة، بادر ملك البرتغال الى تحويل مسجدها الجامع الى كنيسة هي اليوم كاتدرائية سبتة.

ان معظم التجارة التي كانت تمر بسبتة وقت أن كانت في أيدي المسلمين توقفت وتحولت عنها الى موانى شمال افريقيا الأخرى. وفي حين أن بعض أفراد الحامية كانوا يقومون بنهب المزارع والبساتين في أحواز سبتة، أو بمزاولة القرصنة في مضيق جبل طارق، فان الملك لم يجْنِ من انتصاره مكسبا ماليا يذكر، فهو لم يزد من ايراداته، بل أصبح لزاما عليه الانفاق على حامية المدينة وقوامها ٣٠٠٠ رجل(٦٠). ان سبتة «وقد خلت من سكانها وأصبحت في عزلة عن المنطقة المحيطة

(٥٨) Bell, p. 41. Livermore, p. 11. Atkinson, 98.

(٥٩) Bell, p. 41.

(٦٠) نفسه، ص ٤١.

بها أصبحت ــ بعد أن كانت ذات يوم ميناء مزدهرا ــ عبئا ثقيلا على الخزانة البرتغالية»(٦١).

وقد مكّن احتلال سبتة البرتغاليين من الحصول على بعض المعلومات حول بلاد السودان في أعالي نهري السنغال والنيجر، وهي مصدر الذهب بالنسبة للمغرب. وكان البرتغاليون يصبون الى الاتصال المباشر بمصادر الذهب في السودان الغربي، اذ لم تكن للبرتغال عملة ذهبية خاصة بها منذ عام ١٣٨٣ م، فكانت من بين الممالك الأوروبية القليلة في مثل هذا الوضع(٦٢).

إن الاستيلاء على سبتة قوبل بالترحيب في أوروبا المسيحية، وأثار حماسا كبيرا لأنه كان شبه حملة صليبية، وكان من شأنه تعزيز هيبة البرتغال وملكها في أوروبا. كان الأتراك العثمانيون يتوغلون آنذاك في شرق أوروبا، وقدر لهم الاستيلاء على القسطنطينية، والإجهاز على الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ م، ولذلك فان العالم المسيحي نظر الى أخذ سبتة على أنه أول هجوم مضاد ناجح ضد الاسلام(٦٣).

وبعد أخذ سبتة، بدأ البرتغاليون في مزاولة القرصنة في مياه غرب البحر المتوسط. فقد أنشأ حاكم سبتة البرتغالي سفنا كانت تكمن لمراكب المسلمين التي تتردد على مينائي جبل طارق ومالقة. وأصبح قراصنة البحر البرتغاليون يفرضون شروطهم على المراكب في البحر المتوسط، ويأسرون من فيها من المغاربة ويسترقونهم ما لم يقوموا بفداء أنفسهم(٦٤).

كان احتلال سبتة بداية لتوسع استعماري أدى خلال القرن الخامس عشر الميلادي الى احتلال العديد من موانىء المغرب من قِبل الاسبان والبرتغاليين، كما كان فاتحة سيطرة أوروبا على قارتي افريقيا وآسيا واستعمار أراضيهما(٦٥). وبأخذ سبتة أصبح للبرتغال أول قاعدة في افريقيا، ومنها أصبح بامكانها التغلغل في القارة

(٦١) Laroui, p. 234.

(٦٢) Boxer, p. 19.

(٦٣) Bell, pp. 41-42.

(٦٤) Braudel, p. 608. Livermore, p. 109.

(٦٥) Abun-Nasr, p. 133.

الافريقية، أو حتى شن هجوم على جبل طارق عبر المضيق(٦٦). ويبدو أن رحلات الكشوف البرتغالية في المحيط الأطلسي، والتي يقترن بها اسم الأمير هنري الذي اشتهر ــ خطأ ــ باسم هنري الملاح، بدأت في حدود عام ١٤١٩ م، أي بعد أربع سنوات من تاريخ أخذ سبتة من أيدي المغاربة(٦٧).

وفي مجال العلاقات المرينية النصرية، كان سقوط سبتة يعني أن المغرب وغرناطة كليهما أخذا يدركان الخطر الداهم، مما أدى الى تعاونهما عام ١٤١٩ م في شن هجوم على سبتة باء بالفشل. وان وجود النصارى بين فاس وغرناطة وضع حدا لما كان لبني مرين وبني نصر من تأثير في المصير السياسي في البلدين(٦٨).

ان سقوط مدينة سبتة في أيدي البرتغاليين أثار موجة من السخط والذعر في المغرب والعالم الاسلامي، وكان أحد العوامل الرئيسية التي عجَّلت في نهاية حكم بني مرين، كما أدى الى نشاط شيوخ الطرق الصوفية في إذكاء روح التضحية والجهاد في نفوس المغاربة ذيادا عن الاسلام، ودفعا لعادية الغزاة من النصارى عن سبتة وغيرها من مدن المغرب الساحلية التي سقطت في أيديهم. «ولم تتوقف القبائل المجاورة لسبتة عن شنِّ هجماتها على حامية المدينة، وتعذّر على الحامية البرتغالية اخضاع تلك القبائل، كما تعذر على البرتغاليين مزاولة التجارة من المدينة، واقتضى الأمر تزويد الحامية بالمؤن عن طريق البحر»(٦٩).

(٦٦) O'Callaghan, p. 548.

(٦٧) Boxer, p. 15.

(٦٨) Abun-Nasr, p. 134.

(٦٩) Livermore, p. 109.

الفهرس

الطبعة الأولى
رجب ١٣٩٨ من وفاة الرسول ﷺ
الموافق شهر النّوار (فبراير) ١٩٨٩

انجاز



مكتب الجماهيرية : ص.ب : ٢٦٨٢ ـ برقيا : الاسلامية ـ مرق : ٢٠٤٠٧ ـ هاتف : ٣١٠٢١
طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

مكتب ايطاليا ـ هاتف : ٥٨٩٤٦٧٤ ـ ٥٨٩٥٠٢٩(٠٦) ـ تلكس ISLAMI ٦٢٢٥١٨
روما ايطاليا

الايداع تونس في مارس 1989 / شعبان 1409
طبع بدار القلم ـ تونس